من روائع الأدب العالمي

قصة

جي دي موباسان

صانعة الكراسي

ترجمة خليل هنداوي

دار الشروق الأدبي

صانعة الكراسي

مجموعة قصصية

جي دي موباسان

دار المحرر الأدبي

جي دي موباسان

١٨٥٠ - ١٨٩٣

بقلم محمد سليمان علي

حياته :

ربما ظل جي دي موباسان كاتباً خامل الذكر في القسم المدني الفرنسي طيلة حياته لولا إيحاء جوستاف فلوبير . فقد اكتشف الروائي العظيم مخايل النبوغ في الطالب الذي كانت غايته من الحياة الدنيا على حد اعترافه أن يكون (حيواناً كامل الصحة) والذي أطلق وهو في الثالثة عشرة على الدين أسم (اللاشيء الأبدي)

وكانت أمه تعتزم أن تجعل منه مؤلفاً نابهاً . وربما كان فلوبير باعث هذا الأمل ، فقد كان يعرف لورا موباسان قبل زواجها من جستاف دي موباسان الفتى المتأنق الذي هجرها بعد أن جردها من كل شيء . وكان فلوبير ولورا

يتراسلان بلا انقطاع، فكان يسدي النصح إليها فيما يختص بتربية ابنيها هرفيه وجي. ولقد كان لهما بمثابة الأب الناصح على نقيض أبيهما الذي كان يتجنب المسؤولية ويحب اللهو، حتى حرم بإسرافه ابنيه من فرصتهما في الحياة. ولقد كان (جي) وهو صبي (كجواد طليق في أحد الحقول)، وفي (اللبسيه امبريال نابليون) برع في الرياضة والسباحة، والنكات العملية الأنيقة؛ وفي الثالثة عشرة كان فلوبير يقرأ المحاولات الأولى في الشعر لمتبناه.

وبعد أن غادر موباسان المدرسة بدأ يدرس القانون، غير أن المال أعوزه فلم يتم الدرس، واضطر أن يلجأ إلى حمى الوظيفة التي كانت غاية الوقار والأمان عند أسر الطبقة الوسطى. وكان موظفاً قديراً. وظل سنين عدة في منصب مغمور، يتناول مرتباً ضئيلاً لا يكفي رغباته المسرفة. ولكنه لم يتعجل لتعزيز وسائله بالكتابة، أللهم

إلا بضع مقالات لجرائد ومجلات أدبية. فقد كانت يد حكيمة، قائدة، تسدد مستقبله الأدبي. وكان يرد على إلحاح أمه إذ تطلب منه قطعاً رائعة: (لم يحن الوقت بعد. إنني أتعلم صناعتي) وكان يكتب بعزم دون كلل، ويعرض كل سطر على فلوبير ليصححه أو يكتبه له من جديد، وما اشتكى موباسان قط ولا كد نفسه واستمرت تلمذته ثلاث عشرة سنة تلاها عشر من الغنى والمجد. ولما تخلص من خمول الوظيفة، وأصبح سمير الأبهاء الفرنسية، تعطش للنجاح، بيد أنه على أثر سقوطه النسبي كمؤلف مسرحي اعتراه ذلك الأسى الذي ألقى ظلاً قاتماً على الجزء الأخير من حياته. (فالتكرار) وهي المسرحية التي كان بها جد فخور، لم تمثل إلا بعد إحدى عشرة سنة من وفاته.

وقد انتصر الكاتب على حساب (الحيوان كامل الصحة)؛ فقد كان من مغامراته أن يلقى بنفسه في السين

وهــو في لباســه ليــدهش مواطنيــه الباريســيين المتكلفــي الاحترام، وأن يصطاد في الهواء والماء، وان يلاكم ويبـارز بالسيف، وأن يجوب البلاد والأمصار. إلا أن حياة الحيوان في دي موباسان لم تكن في واقع الأمر في حـدود الصـحة، فقد فرط في قواه الجسـمانية، وعبـث بالصـحة الـتي كـان يقدرها فوق كل شيء. ولقـد قـدر (لثـور بريتـاني) كمـا كانوا يدعونه لضخامة جسمه أن يجلس في تراخ في الأبهـاء بحكم عمله؛ ومع حبه للأدب كان نظـره الضـعيف يعوقـه عن القراءة. وفي شـبابه كـان في سـن تؤهلـه للاشـتراك في الحرب الفرنسـية الألمانيـة عـام ١٨٧٠، ولكـن نفـوذ مـن يهمهم مستقبله الأدبي كان سبباً في تعيينـه في قسـم المؤونـة بعيداً عن معمعة القتال. وكان كبسترندبرج يحتقر النساء، ولكنه لم يكن يستطيع العيش دونهن.

وكان في أسرته جنون وراثي؛ فبعد أن أصيب أخـوه في قواه العقلية ثم موته، علم موباسان أنه محكوم عليـه بتلـك

النهاية، وكانت حالته معقدة، وأغلب الظن إنها لو فحصت في البداية لكان في الإمكان إنقاذه. ولن يعادل ما وضع من السخريات في قصصه تلك السخرية التي إصابته في السنين القلائل الأخيرة من سني حياته، حينما انحطت قواه العقلية بسرعة. وحقاً لقد كان استمراره في الكتابة نتيجة لأرادته الحديدية وقوته الشديدة!

وفي ذات يوم وهو يغادر مكتبه التفت فابصر نفسه مازال جالساً إلى مكتبه هذا، وزادت أخيلته سوءا وأخذت أشكالاً مخيفة؛ ولم يكن هناك أمل بعد؛ غير أن الساخر الذي لم يكن يعتقد في فضيلة من الفضائل ظل يغالب الأمل، وفي الدرجات الأخيرة من مرضه كتب إلى أمه يخبرها أنه في تحسن ظاهر: فالعقل في داخليته مازال يستطيب الحياة ويقدر الشمس والسباحة والرياضة وحاول بمعونة فرانسوا خادمه الأمين الذي ظل سنوات عدة صديقه المخلص أن يفر من النساء المعجبات به اللاتي لم

يتحققن أنه هالك، ولاسيما إحداهن وهي امرأة غامضة؛ وقد حاول بعد زيارة فجائية منها أن يطلق الرصاص على نفسه، لكن فرانسوا اليقظ كان قد اتخذ الحيطة فأخرج الرصاص من الغدارة. وبعد محاولة أخرى للقضاء على حياته نقل إلى مستشفى المجانين حيث ظل في راحة لا يذكر شيئاً ولا يحس شيئاً سوى تلك التأملات المبهمة التي يراها من فقد قواه العقلية بلا أمل.

فنه:

لو طلع إنسان على نخبة من قصصه دون إلمام بالتواريخ والأحوال والنظريات، لاستطاع دون عناء أن يستنتج أنه كتب حين كانت مرارة الهزيمة في حرب السبعين ما زالت تلقى على فرنسا ظلاً عبوساً، وأنه كان رجلا مكنته وسائله وأخلاقه من الاختلاط بالأوساط الخاصة إلا أن النصيب الأعظم من عطفه الغريزي كان للفلاحين

والفقراء، وأنه كان مشغولا بمعضلة البغاء، وأنه مع كل عظمته كفنان كان في استثماره تلك المعضلة لمؤثرات عاطفية ظاهرة يهبط أحياناً إلى درجة الإسفاف.

وقصص موباسان جيدة. فالموضوع جذاب مشوق حتى ليجذب الانتباه لو حكي على مائدة الأكل، وهذه ميزة يعتد بها، فمهما كانت كلماتك متقطعة، وسردك فاتراً ضعيفاً، فلن تخفق في إثارة اهتمام سامعيك إذا قصصت عليهم القصة العارية في (بول دي سويف) أو (الميراث) أو (القلادة) فهذه القصص لها بداية ولها وسط ولها نهاية. فليست تهيم في خط متردد لا تستطيع أن تعرف أين تنقاد، ولكنها تتبع من المقدمة إلى النهاية منحنيا قويا جريئا.

وربما خلت قصته من المعنى الروحي. ولم يرم موباسان إلى ذلك، فلقد كان ينظر إلى نفسه كرجل عادي. ولم يدع الفلسفة وحسنا فعل، لأنه حين يندفع في التأمل

يصبح سطحياً. ولكنه مبدع في حدوده. وحقاً لقد كانت له مقدرة عجيبة في خلق أشخاص يزخرون بالحياة؛ وقد يضيق بالإيجاز، ولكنه يستطيع في صفحات قلائل أن يعرض أمامك ستة من الرجال في صورة واضحة حتى إنك لتعرف كل ما تحتاج عنهم فضلاً عن أن حدودهم ظاهرة، ومزاياهم واضحة، وأنهم يتنسمون أنفاس الحياة، وقد خلوا من التعقيد ومن التردد ومن المفاجآت ومن الغموض الذي نراه في الآدميين فصور أشخاصه بسيطة إلا أن هذه البساطة غير متعمدة، فعيناه الحادتان كانتا تريان بوضوح وإن كان على عمق غير بعيد. ولقد كانتا فرصة سعيدة أن تريا ما هو ضروري للفكرة التي يرمي إليها. فهو حقاً يضع عينه على المرمى الذي نصبه أمامه، ولكنه ما كان يستطيع أن يرى أكثر من مرمى واحد في وقت واحد. فالمنظر الواحد، والجو المفاجئ، والباعث القاهر، كانت قوام مادته. وهذا هو السبب في أنه لم ينجح في القصة

الطويلة كما نجح في القصيرة. ويقول موباسان: (الفنان يحاول أن ينجح أو يخيب، والناقد لا يحق له أن يقدر النتيجة دون أن يتتبع طبيعة المجهود، وليس له الحق في أن يشغل بالمؤثرات.) ولما كان يفرق بين الخيالي والواقعي، كان يصر على أن الواقعي يجب أن يكون (أكثر كمالاً، وأشد تأثيراً، وأتم انطباقاً، مثل الحقيقة نفسها.) وهو كمن سبقه من الكتاب النابهين لم يكن خيالياً فحسب ولا واقعياً فحسب، ولكن كان الاثنين معاً؛ وكانت عبقريته في أن يرى ما في الحقيقة من ابتداع.

وتمتاز كتابته أيضاً بصحة وطلاوة وبساطة من الصعب تحليلها ولكن من السهل فهمها. وليس معنى ذلك أن سهولة فهمها للأجنبي تجعلها سهلة الترجمة. فالواقع إننا نجد أن أسهل الأعمال في كل لغة أصعبها في النقل، فقراءة هوميروس أسهل من قراءة (مآسي أثينا) إلا أنه لم ينجح في نقل هومير الشاعر الساحر إلى الآن أحد. وموباسان

يعالج المحيط بنفس البساطة، فهو يضع منظره بدقة واختصار وتأثير، فإذا كان يصف طبيعة نورماندیا الفاتنة، أو أبهاء القرن الثامن عشر، فهو في الحالين سواء.

وكان من أتباع المذهب الطبيعي يرمي دواماً إلى الحق، غير أن الحق الذي كان يتوصل إليه به قليل من الزيف. فلم يكن يحلل شخصياته، ولا يهتم بالأسباب الدافعة. فهم يتصرفون ولكنه لا يعرف إلى أي نهاية. وفيما يلي تعليله على حد قوله: (في رأيي أن التحليل النفسي في قصة طويلة أو قصيرة معناه هذا: أن أظهر الرجل الداخلي من حياته) حقاً هذا جميل، بل هو ما يفعله القصصيون أجمعون، ولكن الحركة لا تدل دواماً على الباعث. والنتيجة عند موباسان كانت تبسيطاً للشخصية، وهذا له أثره في القصة القصيرة، ولكنه عند إعمال الفكر يتركك غير مقتنع. وإذ ذاك تقول إن في الرجال من يفوق ذلك، هذا وقد كانت تتملكه الفكرة المنتشرة بين مواطنيه إذ ذاك،

وهي أن الواجب على المرء لنفسه أن يتصل بأي امرأة دون الأربعين تصادفه. فأشخاصه تساير رغباتها الجنسية لكي ترضي احترامها لنفسها. فهم كمن يأكل لوناً من الطعام دون إحساس بالجوع ولكن لأنه غالي الثمن.

قلنا إنه كان تلميذاً وصديقاً لفلوبير. وكان التلميذ يتقبل آراء أستاذه في مواضيع عدة؛ وكان يعتقد أنه يحاكيه في مجهوداته الجبارة في الإنشاء. إلا أنه من الصعب أن يتفق ذلك وسهولة أسلوب موباسان؛ على أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الإنشاء الفني كان عند فلوبير نصباً وعناء. ولما كان موباسان قد مات في شرخ الشباب، فمن المحتمل أن ننسى أحياناً أنه لم يكن تلميذ فلوبير فحسب، إنما كان تلميذا لدوديه وزولا وأناتول فرانس أيضاً. ومن العبث القول بأن هؤلاء الكتاب الكبار كانت لهم طريقة مشتركة، سواء من الوجهة النظرية أو العملية، ولكن إذا تكلمنا على وجه العموم دون تقييد فقد نستطيع القول

أنهم يمثلون الحركة المتجهة نحو الدقة والواقعية. فالتنقيب عن الكلمة الملائمة أكثر من سواها، والقول بان الفنان ينبغي أن يسدد نظره إلى الموضوع، وألا يقبل المقاييس العامة لتنظيم تقديرات الشخصية كانت ميول المدرسة والوقت. والدقة الجميلة في عمل فلوبير تدين لمبدئه وطريقته، على حين أن أدب زولا الواقعي كان في الحقيقة منتخبات من أجزاء من الطبيعة أثارت اهتمامه أكثر من سواها. وبعد، أليست ماهية الفنان وعمله مهما حاول أن يوضحه، أننا في النهاية نجده لم يصور الحقيقة وإنما غيرها؟ فإذا سما بهذا التغير نحو الجمال فقد نجح، وإذا انحط به إلى القبح فقد أخفق. وكان موباسان فناناً مجيداً لدرجة تسمو به عن الإسفاف المطلق، فإن أرخص قصصه له ميزة الابتكار، ولكنا نرى النقاد في بعض الأحيان قد بالغوا في مدحه، مع محاولته أن يكون طبيعياً نجده أحياناً يهبط إلى القيود البيانية، ويسمح أحياناً بالعواطف الزائفة

ولقد كان غالباً ما يبدأ قصصه بمقدمة يقصد بها أن يهيئ القارئ لحالة عقلية خاصة، وهي طريقة خطيرة إن لم تنجح فقد تكون مملة، وقد تحمل القارئ بعيداً عن الأثر. ولقد كان يختار أشخاصاً عاديين، ويحاول أن يظهر ما في أعمالهم العادية وحياتهم من الفواجع، وكان يختار الحادث الذي لا أهمية له ويخرج منه كل ما يستطاع من المواقف المؤثرة، وهي طريقة تساعد على خلق الانتباه للقصة. وكان يكتب ويفرط في الكتابة، وكان أيضاً يتخذ موضوعاً متشابهاً حتى (بول دي سويف) التي سببت شهرته تعطينا مقارنة سهلة عادية بين الرحلة التي قام بها بعض المبجلين هرباً من غضب البروسيين وقد أحسوا بقرص الجوع العنيف فسرهم أن يشاركوا البغي المسكينة زادها، وبين الرحلة الأخرى بعد أن أغروها بشتى الوسائل من حيلة ورجاء على ارتكاب الخطيئة مع الضابط الألماني تلبية لطلبه، حتى إذا قبلت التضحية على مضض

شديد، أبدوا لها ازدراءهم وترفعوا عن دعوتها لمشاركتهم الزاد في الطريق بعد أن نالوا الأذن باستئناف المسير.

ولقد وجد قادة النقاد أن قصص موباسان وإن لاءمت نبوغه لا تصلح على الرغم من مظهرها الخادع لأن تكون أنموذجاً مثالياً للغير. وقد كان مع حيوانيته وشهوته يعرف رقة الحب النقي. انظر على سبيل المثال قصته (ضوء القمر) ففيها نرى الكاهن الذي يكره النساء وهو ذاهب لكي يفاجئ ابنة أخيه وعشيقها ويجازيها شر الجزاء، يذهب إلى ضوء القمر الشاحب، ويذهل بين الغمام والبلابل، وحين يرى الحبيبين يخطران في تلك الجنة الفيحاء، يقول في نفسه (ربما خلق الإله القادر، هذه الليالي السواحر، لكي يلقى غلالته القدسية على الحب البشري).

محمد سليمان علي

١٨ ـ ١ ـ ١٩٣٧

الميتة...

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنا واحدا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكرارا. من أعماق روحي مرارا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة أذكرها وأرددها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رايتها واحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنا ـ ويا حبذا ذلك الزمن ـ يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها. بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول

فأصبحت لا ادري : أذلك الليل أو النهار يحيط بـي؟ وأنـا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهـل أنـا علـى أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، فكيف سطا عليها الموت؟ لا ادري . . لا أعلم، دخلت علي أمسـية ليلـة مـن ليـالي الشـتاء مبللـة الأثواب فنامـت، فتيقضـت وهـي ترسـل السـعال ملحـة فلزمت سريرها مضطرة .

وبعد ذلك لا أعلم .

الأطباء حشدناهم مـن كـل صـوب . فكـانوا يقـدمون ويكتبون ويذهبون . والعلاجات تنهال عليها وإزاءها امرأة ترعاها . يدها حارة الملمس . وجبينهـا متوقـد . ونضـرتها ساطعة، لكنها كئيبة .

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنـا؟ لا أعلـم . . قـد نسيت كل شيء . . كل شيء . إنها قضت ولا أزال اذكـر تنهدتها الخفيفة وأنتها الضعيفة .

وقد صاح من خولها (آه) ففهمت أن الأمر انقضى.

لم أعد أعلم شيئا. .

لمحت كاهنا يخاطبني بهذه الكلمة: أمعشوقتك؟ فخيل الي انه ينال منها، ـ وهو بعد موتها ـ يجب عليه ألا يعرف شيئا من هذا فنفيته من دارها وطلبت غيره، فخف إلى كاهن طيب السريرة.

رقيق النفس، حدثني عنها فغلب علي البكاء.

أمسيت لا أعرف شيئا، ولكني اذكر الأكفان والناووس الذي ووريت فيه إلى الأبد.

نزلت في التراب، وجاء معها بعض صواحبها، وأخيرا انطلقت وطفت في السبل شاردا، وعدت أدراجي، وفي الغد الباكر حملت نفسي على الرحيل

وبالأمس دخلت باريس. . .

ومذ وقع ناظري على غرفتي. . غرفتنا وسريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شعرت بان أنفاسي

تضيق، وبان كآبة تتمدد في أنحاء نفسي فتزيد صدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفسي من النافذة. . . لم استطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها محبوبتي، فأسرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناضرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رسمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صفحتها فأدركتني رعشة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها ـ قبل اليوم ـ فخيل إلي أنني احب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة. . .

ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.

إلا انهم سعداء، من تشبه قلوبهم هذه المرآة ترتسم عليها الضلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.

برحت مكاني وأنا غير مختار. ولا اعلم أية وجهة اسلك!؟ فدخلت المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد يشرف عليه صليب رخامي نقش تحته

(إنها أحبت وكانت محبوبة ثم ماتت. . .)

إنها تحت هذا الضريح قد عبث فيها الفساد! مكثت هنالك طويلا خاشع الرأس حتى واتى المساء، ولكن خطرة غريبة صعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكراً باكياً، ولكن الناس سينظرون إلي وسيطردوني فما عسى أصنع؟ نهضت وأبديت لمن يراني إنني ضال بين القبور، فسرت وأمعنت في السير، ولكن ما أضأل مدينة الموتى إزاء غيرها من مدن أهل الحياة، والموتى ينيف عددهم على عدد الأحياء.

يتخذ القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أبناء النور، وشاربو الينابيع، وراشفو ابنة الأعناب،

وآكلو سنابل الحقول، أما الموتى الذين تحدروا إلى أعماق الثرى وما زالوا ينحدرون. أولئك لا ينالون شيئا. . . رقعة من الثرى تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم ووداعاً.

في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع ناضري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب، واتى على صلبانهم الهلاك. وغداً سيبدل الأحياء بالنازلين القدماء، نازلين محدثين.

كان يغشى تلك المقبرة ورود منتشرة، وأوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة ساخة تغذيها لحوم الموتى.

آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضاً على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين اللحود

ضللت كثيراً وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسرى باسطاً يدي. وفاتحاً عيني، وواثباً بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة وصلباناً. وأكاليل ذوت ازاهيرها، واكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.

لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية. ! وياله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي ووراءي. أعياني السير فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئا غير خفقانه.

ماذا اسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟

كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم: ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن اقضي نحبي.

فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي اتخذته مقعداً لي بدأ يتحرك كأن شيئا تحته يزيحه، فبعدت عنه مذعوراً وإذا باللوح يمشي. . . وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض

فتلوت على اللوح برغم حلوكة الليل: (هاهنا يرقد (جاك اوليفان) المتوفى في الخمسين من عمره. كان باراً بأبويه: وكان صالحا شريفاً. ومات تحت كنف الله)

رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من اثر. ثم اخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جاك اوليفان المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجل موت والديه لعقوقه، وأضنى امراته.

وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيراً).

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعا بعثوا من مراقدهم، ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والأبناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وأن هؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي، والكاذب والحاسد والنمام، ومنهم السارق والخادع، والمرتكب كثيرا من الآثام. رايتهم جميعا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجعلها أبناء الحياة.

شعرت ـ إذ ذاك ـ بان محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضا عني الخوف، ومن حولي القبور

المفتوحة . والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة . عرفتها إذ لمحتها ، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا . وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت . وكانت محبوبة ثم ماتت) .

تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يوما لتخون حبيبها فأصابها برد أودى بحياتها)

ويبدو لي أنهم عثروا بي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور .

عزلة

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوي، قال لي صديق قديم:

ـ هل لك بأن تجوز ممشى (الشانزليزيه) سعياً على الأقدام؟

انطلقنا بخطوات وئيدة، تظللنا أشجار في مطلع الإيراق، وقد هيمن السكون على تلك البقعة، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب (باريس)، ولقد تهب نغمات باردة تضرب وجوهنا، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية!

قال رفيقي:

ـ لست أدري لماذا أرى الليل ـ هنا ـ أجمل منه في مكان آخر؟

يخيل إلي أن أفكاري تتمدد في أرجائه، وأن في روحي هذه المسارب من النور الدافق التي تطمعني ـ خلال برهة واحدة ـ بأن اطلع على السر الإلهي للأشياء، ولكن سرعان ما توصد النافذة، فينتهي بإغلاقها كل شيء.

وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان في الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائي إلا نقطة سوداء. همس في أذني رفيقي: ـ إنهما لا يبعثان في فؤادي سأماً ـ ولكن إشفاقاً كبيراً، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لي إلا سر واحد يشغلني، وإن كل عناء في الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة. إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد في الجو الطلق يفتشون مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم ـ وما ذلك إلا عمر لحظة ـ ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً.

إنهم يحسون هذه العزلة، أقل أو أكثر منا، وهـذا كـل شيء. منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشـفت العزلة المروعة التي أحيا فيها، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا، ومهما عملنا، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا، ونجاوى شفاهنا، وضمات أذرعنـا، فنحن دائماً نظل منعزلين.

إنني قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة، فراراً من لجوئي إلى بيتي، لأنني أتألم كثيراً مـن العزلـة الـتي تهـيمن علـى المنـزل، ومـا عسـى يجـديني هـذا؟ إنـني أكلمـك وأنـت تسمعني، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب، ولكننا منعزلان.

يقول الكتاب المقدس: سعداء هـم مسـاكين الأرواح، إن عنـدهم وهـم السـعادة، إنهـم لا يشـعرون بشـقائنا المنعزل، ولا يبهتون مثلي في الحياة، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية

بالفهم وبـالنظر، وبـالتنبؤ وبالتـألم دون نهايـة مـن إدراك عزلتنا الأبدية.

إنك لتراني مجنوناً! أليس كذلك؟

إنني بعد ما أحسسـت عزلـة كيـاني، خيـل إلـي أنـني أهوى يوماً فيوماً في مهوى مظلم لم يقع طرفي علـى حافـة له، ولـم أدرك له نهاية، وربما كان بلا غايـة. فأفلـت إليـه وحدي دون رفيـق معـي ولا حـولي، ولا سـالك طريقـي المظلمة. هذا المهوى هو الحياة، وخلال ذلك كنتً أسمـع صخباً عاليـاً وصـيحات وأصـواتا فكنـت أدنـو مـن هـذا الصخب المضطرب متسللا، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه، وما ألفيت إنساناً، وما عثرت علـى يـد أخـرى ترتفع في هذا الظلام المسدل علي.

هنالك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبئوا به، منهم (موسى) الصائح:

(من جاء؛ ومن دعاني؟ لا أحد!

أنا وحدي! وهذه الساعة التي تدق
يا للعزلة! يا للشقاء!)

ولكن العزلة ـ عنده ـ ما كانت إلا شكاً طارقاً، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي. أنه كان شاعراً، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه. إنه لم يكن وحده أبداً. ولكني أراني وحدي وهنالك (غوستاف فلوبير) أحد كبار أبناء الشقاء في هذا الوجود، لأنه كان أحد عباقرته، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة (نحن كلنا في صحراء؛ لا يفهم أحداً منا أحداً) بلى! لا يفهم أحد منا أحداً، فمهما فكروا، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجري على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية في هذا الفضاء نرى منها على البعد صفاء بعضها، والأكثر عدداً منها ضائع في اللانهاية، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد.

وهكـذا الإنسـان لا يـدري مـا يجـول في صـدر رفيقـه الإنسـان وإن واحـدنا لأكثـر بعـداً عـن الآخـر مـن هـذه الكواكـب السـابحة، وأكثـر اعتـزالاً لأن الفكـر لا يسـبر غوره.

هل تعلم شـيئاً أبعـث علـى الهـول مـن هـذا التمـاس الخاطف في الأكوان الذي لا نسـتطيع إدراكـه. إننـا نحـب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسـوطة أذرعنـا دون أن نقـدر على ضم. على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا، ولكـن جهودنـا لا تـزال ضـائعة، وثقتنـا غـير مجديـة، وعناقنـا ضعيف، وحناننا باطلاً، فإذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني.

إنني ما شعرت أنني (واحد) إلا حين استسلم لصديقي وافتح قلبي له. إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه. هو هنالك، ذلك الإنسان، أرى عينيه تسطعان حـولي ولكـن نفسه ـ وراءهـا ـ لا أدركهـا. هـو يسـمعني، ولكـن فـيم

يفكر؟ أجل! فيم يفكر؟ إنك لا تفهم هذا القلق، إنه ربما يقليني، أو يحقرني، أو يسخر مني، إنه يفكر فيما أقول، يناقشني، يحكم علي، يراني أبله أو أحمق. وأنى لي أن أدرك ما يفكر فيه؟ وأنى لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة!؟ وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن: الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته، ولا الاستيلاء عليه، أو الظفر به؟

أنا، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب نفسي جميعها. ولكني لم أقدر على هذا الإسلام كله، لأنني أصون في أعماق نفسي (مكان ذاتي الخفية) حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله، لأنه لا أحد يشبهني، ولأنه لا أحد يفهم أحداً!

أفهمتني أنت الآن؟ كلا! إنك لتحكم علي بالجنون، إنك تتأمل في، وتحترز مني! وتسأل نفسك: (ماذا به هذا المساء؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم في

فعد إلي لتقول لي : (قد فهمتك!) وحينذاك تجعلني سعيداً ـ ولو عمر لحظة ـ

هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن! لأنهن منحني، أكثر من الرجال، التوهم بأنني لست وحيداً!

عندما يحب الإنسان يحس أن عالمه قد اتسع، وأن سعادة ـ فوق السعادة الإنسانية ـ تغمره. هل تعلم سبب ذلك؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة؟ يعود مصدره إلى أن الإنسان أعتقد بأنه ليس وحيدا. وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الإنساني قد انتهى سلطانه، ويا للوهم!

المرأة هي اشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي نقضيها مع هذا الكائن التي طالت غدائر شعره، وراقت ملامحه أو فتكت

لحاظه، فأي هذيان يملك علينا أرواحنا؟ وأي وهم يغمرنا؟

أنا وهي لم نكن إلا واحداً في هذه الساعة، ولكن هذه الساعة لن تحين، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع، أجد نفسي فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أي عهد مضى! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة!

يقول الشاعر (سوللي برودوم)

ليس العطف والحنان إلا هيماناً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا (الاتحاد المحال) بين (الأرواح والأجساد)

وثم وداعاً، فقد انتهى كل شيء، على أن هنالك جهدا في معرفة المرأة التي كانت كل شيء لنا، وفي لحظة من الحياة، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن

الأكـوان أصـبحت في عهـد اتحـاد سـري وامتـزاج كامـل للرغاب، تنزل إلى أعماق نفسها، وكلمة قد تكون تبـدي خطأنا، وتطلعنا ـ كأنها الـبرق الـوامض في الليـل ـ علـى الهاوية التي تفصل بينها وبيننا!

وهنالك ما هـو خـير وأحسـن في الوجـود؛ أن تقضـي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم، سعيداً كل السـعادة، مغتبطاً بمجـرد قيامهـا إزاءك. حـاذر أن تطلـب أكثـر مـن هذا، لأن امتزاج كائنين مستحيل.

أما أنا الآن فقد غلقت أبواب نفسـي، لا أقـول لأحـد عما أعتقد، ولا أظهر ما أفكـر، أنظـر إلى الأشـياء، وأنـا عالم ما تحمله إلى العزلة المروعة ـ دون أن أعلن عنها، ومـا عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة، نفسـي تتنصـل مـن كـل شيء، وفكرتي الباطنة تظل خافية على النـاس، وعنـدي

جملة عامة لكي أجيب بها على الأسئلة التي تلقي علي كل نهار. وعندي ابتسامة تقول:

نعم! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشينا حتى عرجنا في سيرنا على قوس النصر، ثم هبطنا ساحة (. . . .) وكان يعرض فكرته متهملاً وقد أضاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه.

وقفت فجأة باسطاً يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسها في النجوم المفنية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة، وقد هتف صاحبي:

ـ إننا كلنا مثل هذه الأرض!

ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل؟ لست ادري: ولكن يخيل إلي طوراً أنه على بينة من أمره، وطوراً أنه فقد عقله.

الصدأ...

لم يكن له في حياته سوى (غِيةٍ) واحدة، غية نهمة، لا تعرف الشبع: (الصيد!)

كان يصطاد كل يوم من الصباح إلى المساء في لهفة وشوق، وكان يصطاد في الشتاء والخريف وفي الربيع والصيف، وكان يصطاد في الغدران حين كانت الأنظمة تحظر الصيد في الغابات والإحراج، وكان يصطاد بجميع أنواع الصيد: بالعدو، وبالكلب المتحفز والكلب الراكض، والكمين، والمرآة والفتاش...

ولم يكن يتحدث عن شئ غير الصيد، ولم يكن يحلم بشيء غير الصيد!... ولم يكن لينقطع عن التردد: يا لشقاء من لا يحب الصيد!...

ومع أنه تجاوز العقد الخامس من حياته، فإنه صحته لا تزال جيدة، بحيث لا يظن أنه تخطى عتبة الشباب، بالرغم

من الصلع الذي فتك بشعر رأسه؛ وهـو إلى ذلـك شـديد البأس قوي البنية ضخم الجسم.

وكان يحلق ما تحت الشارب ليكشف جيداً عن شفتيه، ويجعل دائرة الفم حرة ليسهل عليه النفخ في البوق.

ولم يكن أحد في المنطقة يـدعوه بغـير اسمـه الخـاص: (السيد هيكتور)، مع أن اسمه البـارون هيكتـور غـونتران دي كورتلين.

وكـان يقطـن في وسـط الإحـراج، في مزرعـة صـغيرة انتقلت إليه بالإرث؛ ومـع أنـه كـان يعـرف جميـع الطبقـة الأرسـتقراطية في المقاطعـة، ويتقابـل مـع جميـع أفرادهـا الذكور في أماكن الصيد، فإنه لم يكن يتردد بصورة فعليـة على أكثر من أسرة واحدة هي أسرة (كورفيل) التي تقطن بجواره وتخلص له الود، والتي عقدت أواصر القرابـة بـين أسرته وبينها منذ أجيال عديدة.

وكـان حبيبـاً إلى هـذه الأسـرة عزيـزاً لـديها، مكرمـاً محترماً؛ وكان كثيراً ما يقول لأفرادها:

ـ لو لم أكن صياداً لما وددت الابتعاد عنكم قط! وكـان السيد دي كورفيل صديقه ورفيقه منذ عهد الحداثة، وكان مزارعاً شريفاً يعيش عيشة هادئة مع زوجه وابنتـه وصـهره السيد دي دانتو الذي لم يكن له عمل، بحجـة أنـه منقطـع لأبحاث تاريخية خطيرة.

وكثيراً ما كان البارون دي كورتلين يتناول عشاءه علـى مائدة أصدقائه ليحدثهم عن الصيد خاصة، وكـان يـروي لهم قصصاً مطولة عن الكلاب والفتاش، وكـان يتحـدث عن هذه الأشياء كما لو كان يتحدث عن شخصيات بارزة له بها صلات وثيقة، فكان يكشف عن نياتها ومقاصدها، ويشرح حركاتها وإشاراتها:

عندما رأى فيدور ـ اسم كلبه ـ أن العصفور هـو الـذي يضطره إلى أن يعدو سريعاً هكذا، قال في نفسه: انتظر أيها

اللعين، أنا لن نلبث أن نضحك وأن نضحك كثيراً. ثم أشار إليَّ برأسه أن أذهب وأتوارى في حقل النَفَل، وأنطلق يبحث ويبحث ملتوياً تارة ومنحرفاً تارة أخرى في شئ غير يسير من الجلبة وهو يتسلل بين الأعشاب ليوصل العصفور المطارد إلى زاوية لا يستطيع الإفلات منها. وقد تم كل شئ كما توقعه، ولم يلبث العصفور أن سقط في أقصى الحقل، إذ لم يكن في إمكانه أن يذهب إلى أبعد من ذلك من غير أن يرى. فقال له فيدور: هاأنت وقعت بين يدي. . . ثم أكب على رجليه متخفياً والتفت ينظر إلى، فما كدت أشير إليه حتى سمعت (برررر) فطار العصفور فرفعت البندقية إلى كتفي وأطلقت منها النار: (بان) وإذا بالعصفور يسقط، فحمله فيدور إلى وهو يحرك ذنبه كأنه يريد أن يقول: أرأيت كيف نجحت الحيلة يا سيد هيكتور؟

وكان كورفيل ودارنتو والسيدتان يضحكون ضحكاً شديداً من هذه القصص الغريبة التي يرويها البارون بكل

ما أوتي من فن وبراعة، فكان يحرك كتفيه ويشير بجميع أعضاء جسمه، حتى إذا وصل إلى موت العصفور انفجر يضحك ضحكاً عريضاً وهو يسأل هذا السؤال الذي يتخذه خاتمة لقصته: إنها لجميلة هذه القصة. أليس كذلك؟.

ولا يكاد الحديث ينتقل إلى موضوع آخر حتى ينصرف عنه سمعه، ويشرع يدمدم بعض أغاني الصيد، كما كان يفعل حين يسود الصمت بين جملتين، فإن الهدوء لا يكاد يقطع ضجة الحديث حتى تنطلق منه على حين غرة: طن. . . طن. . . ويظل البارون يرددها وهو ينفخ خديه كأنه ينفخ في بوق.

وهو لم يتعلق بالحياة إلا لأجل الصيد، وكان الهرم قد بدأ يدب إليه شيئاً فشيئاً. وذات يوم أصيب بداء المفاصل ولزم الفراش شهرين متواصلين، فكاد يقضي كآبة

وضجراً. ولما لم يكن لديه خادم تتولى شئون بيته عهد إلى إحدى العجائز بأمر إعداد الطعام. . .

ولم يكن في استطاعته أن يحصل على كمادات حارة، ولا أن يظفر بما يفتقر المرضى إليه من عناية، فتخذ من قائد كلابه ممرضاً له، وصار هذا الأخير يضجر بقدر ما يضجر سيده على الأقل، فصار ينام ليلاً ونهاراً على الكراسي بينما البارون يشتم ويجدف محنقاً مغتاظاً في سريره

وكانت السيدة كورفيل وابنتها تعودانه أحياناً، فكانت الساعة التي تقضيانها بقربه أحي الساعات إليه، ينعم بالهدوء والراحة، إذ تغليان له ما يحتاج إليه من مشروبات حارة وتتعهدان الموقد وتقدمان له فطوره على حافة سريره؛ فكان يدمدم حين انصرافهما: كان عليكما أن تقطنا هنا؛ فتغرق السيدتان في الضحك وتوصدان الباب وراءهما

ولما تحسنت صحته وعاد يصطاد في الغدران ذهب ذات مساء لتناول العشاء على مائدة أصدقائه، ولكنه لم يكن كعادته مرحاً نشطاً، إذ كان يخشى الانتكاس وعودة الآلام قبل افتتاح موسم الصيد؛ فلما نهض يريد الانصراف هرعت السيدتان إليه تلفان حول عنقه وشاحاً حريرياً، فترك نفسه للمرة الأولى في حياته بين أيديهما؛ ثم أخذ يتمتم بلهجة يائسة:

ـ إذا عادت الآلام إليَّ قضى عليّ لا محالة!

وعندما انصرف قالت السيدة دارنتو لأمها:

ـ يجب تزويج البارون!

فسرَّ الجميع لهذه الفكرة وعجبوا كيف أنهم لم يفكروا في ذلك إلى الآن، وطفقوا يبحثون طيلة السهرة بين الأرامل اللواتي يعرفوهن، وانتهى بهم الأمر إلى أن وقع اختيارهم على سيدة في الأربعين من عمرها ما تزال جميلة موسرة، حسنة الطباع جيدة الصحة تدعى (برت فيلرس)

فدعوها لتمضية شهر في القصر، ولما كانت تضجر وحدها في بيتها لبَّت دعوتهم، وكانت كثيرة الحركة والمرح، وراقها السيد كورتلين لأول نظرة، وأصبحت تسر بوجوده كما تسر بلعبة تنبض فيها الحياة، وصارت تقضي الساعات الطويلة تسأله في خبث عن عواطف الأرانب وحيل الثعالب. فكان يندفع برزانة في تمييز وجهات نظر مختلف الحيوانات ناسباً إليها خططاً دقيقة كما ينسب مثلها إلى معارفه من الرجال وقد استحسن الالتفات الذي كانت تعيره إياه، وأراد أن يبرهن على تقديره لها فدعاها لمرافقته إلى الصيد، وكانت هذه الدعوة أمراً لم يقدم عليه إلى الآن مع أية سيدة أخرى. وقد بدت لها هذه الدعوة مضحكة إلى درجة لم تر مانعاً من قبولها.

وتعاون الجميع على إلباسها لباس الصيد. فصار كل واحد يقدم لها شيئاً، ثم ظهرت وقد ارتدت ثيابها على طريقة سكان (الأمازون) في رجليها حذاءان ضخمان،

تنفرجان عن سروال من سراويل الرجال، فوق قميص قصير تغطيه سترة من القطيفة تضيق عند النحر، وعلى رأسها قبعة من قبعات الخدم الذين يقودون الكلاب.

وكان يبدو على البارون أنه شديد التأثر كأنما هو سيطلق أول طلقة من بندقيته، وشرع يشرح لها بدقة اتجاه الهواء ومختلف أنواع وقفات الكلاب، وطرق اجتذاب الحيوانات والطيور لصيدها. ثم دفع بها إلى أحد الحقول وراح يسير في إثرها خطوة خطوة كأنه مرضع تسير وراء رضيعها عندما يبدأ يمشي لأول مرة.

وصادف (فيدور) طائراً فأكب على رجليه ووقف.

ثم رفع إحدى رجليه، وكان البارون وراء تلميذته يرتجف كريشة في مهب الرياح يتمتم: انتهى. . . حجـ. . . لات. . .

ولم يكد يتم كلمته الأخيرة حتى دوى طلق شديد، وارتفع من الأرض برررر. . . فارتفع على الأثر سرب من الطيور في الهواء وهي تضرب بأجنحتها ضرباً عنيفاً

ومن شديد التأثر أغمضت السيدة فيلرس عينيها وأطلقت طلقتين، وتقهقرت من أثر رجة البندقية، فلما استعادت رباطة جأشها أبصرت البارون يرقص حولها كالمجنون وفيدور يعود بحجلتين بين فكيه.

منذ ذلك اليوم بدأ السيد كورتلين يعشقها!

وأنشأ يقول عنها وهو يرفع بصره: يالها من امرأة! . .

ومنذ ذلك اليوم صار يأتي كل مساء ليتحدث عن الصيد. وذات مرة، بينما كان السيد دي كورفيل يودعه والبارون مندفع في امتداح صديقته الجديدة سأله:

لماذا لا تتزوجها؟

فجمد البارون كالمأخوذ وقال:

ـ أنا؟ . . . أنا؟ . . . أتزوجها! . . . ولكن . . . فعلاً . . .

وصمت ثم هز يد صديقته بسرعة وتمتم :

ـ إلى اللقاء يا صديقي

واختفى في ظلام الليل وراح يبتعد بخطوات واسعة . .

ولم يعد البارون طيلة أيام ثلاثة ، ولما عاد كان الشحوب قد صبغ وجهه بصفرة داكنة لشدة ما عاناه من التفكير الممض . وكان هذه المرة أكثر رزانة من قبل ، فتوجه إلى السيد كورفيل وأخذه على طرف ثم قال له :

ـ لقد خطر لك وجيه ، فأرجوك أن تعمل على تهيئتها لقبولي زوجاً لها . . . يا لله . . . لكأن هذه المرأة خلقت من أجلي ، إذ نستطيع أن نذهب للصيد معاً دائماً .

ولما كان السيد دي كورفيل متأكداً من أنها لا ترفض ، أجاب :

ـ أطلب يدها حالاً يا عزيزي . . . أتريد أن أقوم بهذه المهمة؟

ولكن البارون اضطرب فجأة وصار يتلعثم :

ـ كلا! . . . كلا! . . . . ينبغي قبل ذلك أن أقوم برحلة قصيرة . . . برحلة قصيرة إلى باريس، وسأجيبك حال رجوعي الجواب النهائي . . .

وامتنع عن بيان أسباب ذلك . وفي اليوم التالي سافر . . . . مضى أسبوع . . . أسبوعان . . . ثلاثة . . . والسيد كورتلين لم يعد، فاستغربت ذلك أسرة كورفيل وقلقت عليه، ولم يعد أفرادها يدرون ماذا يقولون للسيدة فيلرس التي أطلعوها على رغبة البارون، وصاروا يرسلون كل يوم إلى داره من يتسقط أخباره، ولكن لم يكن بين خدمه من تلقى شيئاً منه .

وذات مساء، بينما كانت السيدة فيلرس تغني وهي تعزف على البيان اقتربت الخادم بحذر كبير من السيد

كورفيـل، وهمسـت في أذنـه بصـوت خافـت جـداً: إن بالباب رجلاً يريد مقابلته.

وكان هذا الرجل البارون وهو ما يزال في لباس السفر، وقد بدا عليه كثير من الشحوب والهزال والهرم، وما كـاد يقع بصره على صديقه حتى أسـرع إليـه وأمسـك بيديـه، وقال له بصوت ضعيف متعب:

ـ وصلت في هذه اللحظـة يـا عزيـزي ومـع ذلـك فقـد أسرعت إليك لأقول لك. . .

ثـم صـمت برهـة، وفي شـيء مـن الارتبـاك والـتردد استأنف:

ـ أريد أن أقول لك. . . حالاً. . . إن القضية. . . التي تعرفها لا يمكن. . . أن تتم. . .

فنظر إليه السيد كورفيل دهشاً:

ـ كيف. . . ؟ ولماذا لا يمكن أن تتم؟

ـ أوه! . . . أرجوك ألا ترهقني بالأسئلة، إذ يشق على كثيراً أن تضطرني لبيان السبب، ولكن كن واثقاً كل الثقة أنني لا أفعل إلا ما يفعله كل رجل شريف. . . . إني لا أستطيع. . . بل ليس لي الحق في أن أتزوج هذه السيدة. . . أفهمت؟. . . وسأنتظر مغادرتها داركم لأعود إليكم. . . لأن مشاهدتها تمضني كثيراً. . . فإلى اللقاء. . . وانصرف هارباً

فاجتمعت الأسرة كلها وأخذت تتشاور وتتناقش وتفترض الافتراضات المختلفة، وانتهى بها الأمر إلى أنه لابد أن يكون في حياة البارون سر خطير، فقد يكون له أولاد طبيعيون، وقد تكون له علاقات غرامية قديمة. . . وأدركت أسرة كورفيل أن الحالة على جانب عظيم من الرصانة، ومنعاً لتعقيدات أخرى تسلحت بلباقة فائقة لإطلاع السيدة فيلرس على الواقع. . . فعادت هذه السيدة أرمل كما قدمت. . .

ومضى على ذلك ثلاثة أشـهر . وفي ذات مسـاء أفـرط السيد دي كورتليه في تناول العشـاء، وصـار يترنـح وهـو يدخن غليونه مع السيد دي كورفيل، كم كانت دهشة هذا الأخير عظيمة حينما فاجأه البارون قائلاً:

ـ آه لو كنت تعلم كم أفكر في صديقتك، إذن لأشفقت علي!

والسيد دى كورفيل الذي استاء من سـلوك البـارون في هذه القضية أجاب بصراحة:

ـ كان عليك يا عزيزي، ما دام في حياتك الماضية أسرار ألا تقدم على ما أقدمت عليـه، إذ كـان في إمكانـك بكـل تأكيد أن تفكر من قبل في السبب الذي سيضطرك للرجوع من عزمك.

فبدت على البـارون علامـات الخجـل، وقـال بعـد أن توقف عن التدخين:

ـ كان ذلك ممكناً وغير ممكن في وقت واحد . . .
ولكني لم أكن أصدق إمكان حدوث ما حدث
فقاطعه لسيد دي كورفيل بفارغ الصبر :
ـ كان عليك أن تفكر في إمكان حدوث كل شيء!
فألقى السيد كورتلين نظرة على الظلام الذي يكتنفهما ، وبعد أن تأكد من أنه ليس حولهما من يسمعهما قال بصوت منخفض :
ـ ألاحظ أنك مستاء من تصرفي ، وسأفضي إليك بكل شيء لتمن عليّ بالعذر . . . منذ عشرين سنة وأنا لا أحيا يا صديقي إلا للصيد . . . والصيد وحده دون كل شيء آخر . . . أنا كما تعلم لا أحب شيئاً غير الصيد ، ولا أهتم بشيء آخر سواه . . . ولذلك خطر لي قبل أن أوقع عقد الزواج مع هذه السيدة أن . . بل حصل في ضميري تردد . . . إذ منذ الزمن الذي انقطعت فيه عن . . . عن الحب . . . لم أعرف إذا كنت لا أزال أقوى على . . .

على . . . أفهمت؟؟ . . . تصور أنه مضى عليّ أكثر من ست عشر سنة لم . . . لم . . . أفهمت؟ وليس من السهل في هذه المقاطعة أن . . . أفاهم أنت؟ . . . ثم إنه كان لدي شيء آخر أعمله . . . كنت أفضل على ذلك أن أطلق طلقة من بندقيتي . . وبكلمة مختصرة حين عزمت على أن أتعهد إزاء الكاهن وإزاء المأمور الرسمي على أن أقوم بواجب الزوجية خشيت أن أكون . . . والرجل الشريف لا ينقض عهوده ولا يخل بتعهداته . . . وكان علي أن أقطع لهذه المرأة عهداً مقدساً بأن . . . وأخيراً، ولكي أكون واثقاً من نفسي قررت أن أسافر إلى باريس وأن أقضي فيها ثمانية أيام، ولكن الأيام الثمانية انقضت ولم أستطع أن أعرف شيئاً مطلقاً، ولم يكن ذلك ناشئاً عن قلة ما قمت به من تجارب، إذ ترددت على أحسن ما في باريس من جميع الأنواع وجميع الأجناس، وأؤكد لك أن أولئك عملهن كل ما باستطاعتهن . . . ولكن ماذا تريد .

. . كن جميعاً ينسحبن مغمغمات . . . متمتمات . . . وإذ ذاك قررت أن أنتظر خمسة عشر يوماً . . . فثلاثة أسابيع رجاء أن . . . وقد أفرطت في تناول الأطعمة المفلفلة، الأمر الذي أجهد معدتي إجهاداً عظيماً . . .

ورغم كل ذلك لم أستطع شيئاً مطلقاً! . . . وفي هذه الحال وإزاء فشل جميع المحاولات لم يكن لي بد من الانسحاب . . . وهذا ما فعلته! . . .

وكان السيد دي كورفيل أثناء ذلك يدور على نفسه ويبذل جهداً عظيماً ليحول دون انفجاره بالضحك، فلما فرغ البارون من روايته هزَّ يديه برصانة قائلاً:

إني لأشفق عليك حقاً

ورافقه إلى منتصف طريق منزله . . .

ولما خلا السيد كورفيل بزوجه، أطلعها على كل شيء وهو يكاد يختنق من شدة الضحك، ولكن السيدة دي

كورفيل لم تضحك قط وإنما كانت تنصت إلى زوجها بانتباه، حتى إذا فرغ من حديثه ابتدرته برزانة:

إن البارون أبله يا عزيزي. . . فإذا كان لم يستطيع شيئاً فلأنه كان خائفاً. . . وسأكتب حالاً إلى برت أن تعود.

فأنشأ السيد دي كورفيل يحتج بفشل جميع المحاولات البارون ولكن زوجته أسكتته بقولها:

ـ يجب أن تعلم أن الرجل إذا كان يحب زوجته واتته القدرة دائماً!

فلم يحر السيد دي كورفيل جواباً إذ اعتراه هو نفسه شئ من الخجل. . .

قصيدة غرام...

غادر القطار مدينة جنوا متجها نحو مرسيليا، ومتقفياً تعرجات الشاطئ الصخري الطويلة، وأخذ يسلك سبيله ـ بخفة وسرعة ونشاط، كثعبان أسود مخيف ـ بين اليم والجبل، زاحفاً فوق الشواطئ ذات الرمال الصفر التي تدغدغها الأمواج الصغيرة بخيوط دقيقة لجينية، ثم يدخل ـ دون تمهل ـ فوهة النفق الأسود، كما تدخل البهائم في أجحارها، أو الطيور الغَردة في أوكارها.

وكان في العربة الأخيرة من القطار، شاب في ريعان صباه، وامرأة أُوتيت من السمن حظاً وفيراً. جلسا متقابلين وجهاً لوجه، دون أن ينطقا بحرف، أو ينبسا ببنت شفة. وكان كلاهما يختلس من صاحبه النظر، بين الفينة والفينة. أما المرأة فكان لها من العمر نحو خمس وعشرين ربيعاً، وكانت جالسة قرب النافذة تمتع ناظريها بمناظر

الطبيعة المُرَنِّية وهي إلى ذلك امرأة قروية صلبة العود، قوية البنيــة، مــن مقاطعــة بييمــون الإيطاليــة، ذات عيــنين ســوداوين، وصــدر ناهــد جسـيم، ووجنــتين مكتنــزتين باللحم والشحم، وقد ألقت تحت مقعـدها الخشـبي عـدة حُزم ورِزم، واحتفظت فيما بين ركبتيها بسلة.

أما هو. . . فقد كان على النحو العشرين من عمره، وكان نحيلاً مهزولاً مسقَّماً بصبغة سمراء قاتمة، وهـي مـن علامات الرجال الذين يعملون في الأرض، خـلال فصـل الصيف، وفي حر الهاجرة وكان إلى جانبه منديل حوى كل ما ملكت يمينـه مـن (ثـروة!) ونشـب: حـذاء وقمـيص، وسروال وصدار. وقد أخفى عدا ذلك تحت المقعد أشـياء أخرى: مجرفة ومعولاً، رُبط بعضها إلى بعض بحبل. لقد كان ذاهباً إلى فرنسا ليبحـث فيهـا عـن عمـل يعتـاش مـن ورائه.

أخذت الشمس تتسلق القبة الزرقاء، بخطوات مبتدئة رزينة، وأخذت تقذف من برجها العاجي البعيد وابلاً من أشعتها النارية المستمرة على الشاطئ الهادئ الوديع.

كان ذلك في أواخر شهر أيار، وأريج الزهر العطري يعبق في الجو، ويدخل العربات، التي ظلت نوافذها مفتحة، وكان شجر البرتقال والليمون في إبان إزهاره، وأريج زهره الناضر يعبق في الجو ويتطاير مع النسيم برقة وعذوبة وقوة، فيفعم الأنوف، ويملأ الخياشم، ويمتزج برائحة الورد الفواحة العطرة التي كانت تنبت على طول الطريق بكثرة مفرطة كما ينبت العشب أو الكلأ في البساتين وأمام الخرائب المتهدمة، وفي الحقول والمزارع أيضاً.

لقد كانت هذه الورود والأزاهير في المكان الملائم لها على هذا الشاطئ الوديع، وكانت تملأ جو البلدةَ بشذاها الفواح، وأريجها التضوع، حتى أنها تجعل النسيم حلو

طيباً كقطعة من حلوى! وليس ذلك ما تصنعه فحسب بل كانت تجعل النسيم شيئاً ألذ من الخمر، ولكنه مسكر كالخمر!

أما القطار فكان يسير الهوينى، كما لو أنه يبغي عامداً أن يطيل مشيته في هذه الحديقة الحالمة؛ وكان يقف بين الآونة والأخرى في المحطات الصغيرة أمام بعض المنازل البيض، ثم يستأنف مسيره الهادئ الواني ثانية بعد أن يصفَّر طويلاً، لم يكن أحد يركب القطار من تلك المحطات، ولم يكن يُرى أحد أيضاً؛ حتى إن المرء ليحسب أن الخليقة ناعسة بأسرها، وأن أحداً لا يجد القوة والنشاط لتغيير موضعه في ذلك الصباح اللاهب من فصل الربيع.

وكانت المرأة البدينة تسبل جفنيها بين الآونة والأخرى ثم تفتحها على حين غرة، عندما تشعر بأن السلة التي وضعتها بين قدميها على وشك السقوط، فتمسكها بحركة

سريعة نشيطة، وتمد رأسها إلى النافذة، وتمتع ناظريها بمشاهد الكون المرئية، ثم تعود إلى إغماض جفنيها من جديد، وكانت بعض قطرات من العرق تلتمع فوق جبهتها، ثم تتنفس بجهد وعناءٍ، كما لو كانت تعاني ضغطاً شديداً.

أما الفتى القروي فقد أحنى رأسه، وأستسلم لنوم عميق لذيذ وعندما كان القطار يغادر محطة صغيرة، استيقظت المرأة على حين غرة ثم أخرجت من سلتها رغيفاً من الخبز وبيضاً مسلوقاً وقارورة من الخمر وأجاصاً جيداً مورَّد الخد وشرعت تأكل.

وأستيقظ الشاب فجأة أيضاً على صوت حركاتها الأخيرات وأخذ يرنو إليها ويطيل النظر إلى لقمة تَطعَمها وتذهب بها من بين ركبتيها إلى فمها. ومكث كذلك: مشبك الذراعين، محملق العينين، بارز العارضتين، مغلق الشفتين.

وكانت المرأة تَطْعَم غداءها رغبة ملحة ونهَم شديد، وتحسو مع كل لقمة جرعة من صهبائها كي يسوغ طعامها ويسهل عليها ابتلاعه. وكانت تمتنع هنيهة عن طعامها بين الفينة والفينة لتستجم أولاً وترسل نَفَساً طويلاً ثانياً.

لقد أتت على كل ما لديها من طعام وشراب، فلم تُبقي شيئاً من الخبز أو البيض أو الأجاص أو الخمر. وما أن انتهت القروية البدينة من غدائها حتى أغمض الفتى جفنيه. ولما شعرت المرأة بالشبع، وامتلاء المعدة، نزعت أزرار ثوبها من عراها، كي تصيب بعض الراحة بعد هذا الشبع المفرط. ونظر إليها الفتى من جديد، ولكنها لم تضطرب من نظراته ولم تقلق، بل ثابرت على فك أزرارها، وكان ضغط نهديها المتوثبين الشديد، يبعد القماش بعضه عن بعض، ويظهر من الفرجة ـ التي أخذت تتسع ـ شيئاً من قميصها القطني الأبيض، وقليلاً من بشرتها، ولما وجدت القروية البدنية. ولما وجدت

القروية البدينة نفسها أقر عيناً، وأهدأ بالاً، وأكثر راحة وسروراً، رفعت رأسها للفتى، وقالت له تحدثه بالإيطالية:

ـ لقد بلغت شدة الحر حداً تعسر معه التنفس وضاق

فأجابها الشاب، باللغة نفسها، واللهجة ذاتها:

ـ إن الطقس حسن، ملائم للسفر والسياحة كل الملائمة والتفتت إليه فسألته:

ـ أأنت من مدينة بيمون؟

ـ بل من آستى

ـ أما أنا فمن كازال

لقد كانا من بلدتين متجاورتين، فآلف ذلك بين قلبيهما، وجمع بين روحيهما، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث. تحدثنا طويلاً. . . وطويلاً جداً، عن أمور وأشياء مبتذلة، لا قيمة لها وشأن يذكر؛ أشياء تعيد العامة ذكرها، وتكررها في كل ظرف أو مناسبة. وهي في الحق

أقصى ما يصل إليه تفكير هذه الطبقة الضيق. تحدثنا عن البلدة، وعن أخبارها وظرائفها. لقد كان لديهما معلومات مشتركة غزيرة، يعرفها كلاهما بالتفاصيل والدقائق. وأخذا يذكران الأشخاص، ويعددان الأسماء التي يعرفان أصحابها. وكانت أواصر الصداقة والمودة تزداد توثقاً بينهما كلما ذكرا شخصاً جديداً رأياه، أو صحباه، أو عرفاه. وكانت الكلمات تنطلق من ثغريهما بقوة وحماس، وسرعة ونشاط، مع نهاياتها الموسيقية الرنانة، ونغماتها الإيطالية الحلوة. ثم أخذ كلاهما يعرف صاحبه إلى نفسه:

أما المرأة فقد كانت متزوجة ولها من الأولاد ثلاثة تركتهم إلى أختها لترعاهم، وتقوم على خدمتهم، لأنها أخذت تشغل منصب مرضع وفير الربح، لدى سيدة فرنسية في مرسيليا.

وأما الفتى الشاب فقد كان يبحث عن شغل، وقد قيل لـه: إنـه سـيجد ـ دون ريـب ـ عمـلاً في مرسـيليا لأنهـم يكثرون من البناء والعمار هناك.

ومـا أن بلغـا هـذا الحـد مـن الحـديث حتـى اعتصـما بالسكوت وأخذت الحرارة تزداد والنهار يَـرْمض، وذكـاء يشتد سعيرها كلما غذَّت الخطا في تسـلق القبـة الزرقـاء، وكانت أشعة الشمس اللاهبة تسقط على عربـات القطـار فتزيد في شدة الحـر، وتضـاعف أواره المتسـعر، وأخـذت غمامة من الغبار الكثيف تتطاير خلـف القطـار، وتـدخل العربات. وكان أريج زهر البرتقال والورود يزداد تضـوعاً وانتشاراً، فيملأ الخياشيم ويفعم الأنوف واسـتولت علـى المسـافرْين الفتَّـيْين مـن جديـد رغبـة ملحـة في الرقـاد، فاستسلما طائعين لسلطان الكرى القاهر.

وعدا بعد حين، فنفضا عـن عيونهمـا بقايـا النـوم، في وقت يوشك أن يكون واحداً. وتضيقت الشمس أخـيراً،

وأخذت تدنو من البحر، وهي تنير صفحة الماء الأزرق بأشعتها الأرجوانية اللألاءة، فيزداد بريقه ويشتد تألقه والتماعه. وبدأ الهواء الطريُّ الرطب، أخف وطأة، وأقل ضغطاً.

وأخذت المرضع تلهث وكان صدارها مفتوحاً، وخداها مسترخيين، وعيناها كامدتين. . . ثم قالت بصوت ينم عن الإعياء البالغ، وألاين الشديد:

ـ منذ نهار أمس لم أُدن ثدي من طفل، وهاأنا ذا بسبب ذلك مضطربة الفكر، مشتتة القلب، موزعة الفؤاد، كما لو كنت مقدمة على إغماء شديد.

ولم يحر الشاب جواباً، لأنه لم يدر ما يقول، ولا بماذا يجيب واستمرت المرضع في حديثها فقالت:

عندما تملك المرأة لبناً بالقدر الذي أملك، من الواجب عليها أن ترضع ثلاث مرات في النهار، فإن لم تفعل أصيبت بضيق عظيم، وغم شديد، إنني أشعر بعبء ثقيل

يرزح فوق صدري، ويكاد يحبس عني الأنفاس، ويحطم مني الضلوع. من الشقاء والتعاسة أن تملك المرأة لبناً بهذه الغزارة والكثرة.

فأجابها الفتى بنغمة الموافق الآسف:

ـ حقاً إنه من الشقاء يا سيدتي. . . إن هذا اللبن يقض مضجعك ويزعجك دون ريب. . .

وفي الحق كانت تبدو على محياها إمارات المرض، ويظهر في عينيها بريق التعب والإعياء. ثم جمجمت في صوت خفيض:

ـ يكفي أن يضغط المرء ثديي قليلاً كي يتفجر منه اللبن، كما لو كان ماء ينبجس من نبع، حقاً إن هذا منظر مروع، حتى أن المرء لا يكاد يصدقه لمجرد السماع، وفي (كازال) يتقاطر الناس عليّ كي يروا ثديي.

ـ أحقاً ذلك؟

ـ أجل، إن هذا حق، لا غبار عليه، ولا لبس فيه، وسأريكهما، غير إن هذا لا يفيدني في شيء، لأني لن أستطيع أن أفرغ شيئاً من محتوياتهما على هذه الصورة

قالت ذلك وسكتت من جديد.

ووصل القطار بعد حين من الوقت، إلى إحدى المحطات، فوقف عن المسير. وكان في المحطة ـ خلف الحاجز القائم بين القطار والجمهور ـ امرأة هزيلة الجسم، رثة اللبوس، تحمل بين ذراعيها طفل يبكي.

ووقع نظر المرضع على المرأة؛ فقالت بصوت تمثل فيه اللطف والإشفاق والرحمة:

ـ هذه امرأة يمكنني أن أخفف عنها ما تعاني من ضيق، كما أن الطفل بإمكانه أن يخفف عني هذه الأثقال التي ينوء بها صدري. اسمع يا صديقي لست غنية ـ لأني أترك منزلي وذوي وابني الأصغر، كي أعمل كمرضع، بعيدة عن الوطن والأهل ـ ولكني على استعداد لدفع خمسة

فرنكات في سبيل الحصول على هذا الطفل وإرضاعه مدة عشر دقائق؛ إن هذا دون ريب بعيد الهدوء والسرور إلى نفسينا. يخيل إلي أني سأبعث من جديد حين أفعل ذلك، وإن الحياة ستسري في عروقي.

قالت ذلك، ولجأت إلى أحضان الصمت تعتصم به من جديد وأخذت تمسح بيدها اللاهبة ـ حيناً بعد حين ـ جبهتها فيسيل العرق منها ويندى.

ـ ثم قالت بصوت موجع حزين:

ـ لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. . . لم أعد أستطيع. . . يخيل إليَّ أني أوشك أن أموت.

وبحركة لا شعورية أطلقت الأزرار ثوبها العنان فتفتح كله!

وبدأ ثديها الأيمن للعيان، فكان ضخماً كبيراً ينتهي بحَلَمة سمراء. . . شديدة السمرة. وقالت المرضع المسكينة شاكية متألمة:

ـ آه يا إلهي! ماذا أصنع؟ ماذا أفعل؟ لم أعد أستطيع!..

.. وكان القطار قد عاد لاستئناف المسير بين الأزاهير الفواحة التي تنشر شذاها العبق الذي يشتد تضوعه في الأمسيات الدافئة. وفي بعض الأوقات كان يخيل إلى المرء أن زورق صيد وقف هادئاً فوق صفحة الماء الأزرق الساجي بشراعه الأبيض الساكن، وكانت صورته تنعكس في الأمواج، كما لو أن زورقاً آخر كان في المكان نفسه ولكن باتجاه معاكس، أي رأسه إلى أسفل...

ورفع الفتى القروي رأسه إلى المرضع وقال مضطرباً مغمغماً:

ـ ولكن يا سيدتي... يمكنني أن... أن أريحك مما تعانين!...

فنظرت إليه المرضع بطرف مريض كليل؛ وأجابته بصوت خفيض ذليل:

ـ أجل . . . إن أردت يا سيدي . إنك تسدي إلي يداً لا أنساها . لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك! لم أعد أستطيع . . .

وجثا الفتى على ركبتيه أمامها، وانحنت المرضع نحوه مقدمة إلى فمه، بحركة من حركات المرضعات المألوفة لديهن، حَلَمَة ثديها الدكناء . وخلال الحركة التي قامت بها المرضع، والتي أمسكت بها ثديها بيديها، كي تدنيه من الرجل الشاب، ظهر على الحلمة نقطة من اللبن، فأمتصها هذا بسرعة ورغبة ونهَم، وهو يقبض بشفتيه على الثدي الثقيل المنتفخ، كما لو كان يقبض على ثمر شهي! . أو فاكهة طيبة لذيذة . وأخذ الرجل يرضع لبن هذا الثدي بشره ورغبة، ونظام ودقة .

وطوق الشاب بذراعيه خصر المرأة، وأخذ يضغطها كي يدنيها منه أكثر، وكان يتناول لبنه بجرعات متباطئة

متزنة ويميل برقبته يمنة ويسرة، كما يفعل الأطفال الرضع على التمام!

وفاجأته المرأة بعد حين بقولها:

ـ يكفي هذا المقدار من هذا الثدي، خذ الآخر الآن وتناول الثدي الآخر بإذعان وطاعة وخضوع. ووضعت المرأة يديها على الشاب، وأخذت ترسل أنفاسها، بهدوء نفس، وانشراح صدر، وهي تنشق عبير الورود والأزهار الممتزج بنسمات الهواء الرقيقة التي كانت حركات القطار تقذف بها إلى العربات. وقالت على حين غرة:

ـ أعتقد أنه يكفي هذا المقدار الذي ارتضعته

فلم يحر الشاب جواباً، وأستمر يحسو من هذا النبع الذي لا ينضب، مسبلاً جفنيه، كي يشعر بلذة أكبر، وسعادة أعظم.

ولكنها أبعدته برفق وهي تقول:

ـ كفى . . . كفى . . . أشعر بتحسن شديد . إن صنيعك يا سيدي قد أعاد روحي إلى الجسد، وبعثني بعثاً جديداً .

وأنتصب الفتى واقفاً، وهو يمسح شفتيه بظاهر كفه . فقالت له المرأة حينذاك، وهي تدخل في ثوبها، ثدييها الكبيرين اللذين ينفخان صدرها :

ـ حقاً لقد أسديت إلي يا سيدي يداً لن أنساها، أنني أشكر لك هذه المنة، وأحفظ لك هذا الفضل .

فأجابها الشاب بغنة فيها امتنان وشكر وعرفان للجميل :

ـ ولكن عفوك يا سيدتي وغفرانك! . . . أنا الذي يجب علي أن أشكرك من صميم الفؤاد، وسويداء القلب . لقد انقضى علي يومان، يا سيدتي، لم أطعم خلالها شيئاً . . .

المجنونة

كان السيد ماتيو داندولان والسيد روبرت دي بونيير يتجاذبان الأحاديث عندما وجه داندولان نظر صديقه إلى طيور برية قائلا: تذكرني هذه الطيور يا صديقي بحادث مؤلم من حوادث الحرب. . . أنت تعرف أملاكي في ضاحية (كورمي) التي أقيم فيها منذ احتلها البروسيون، وكانت جارتي (جادي) قد اعتراها نوع من الجنون بسبب حوادث مفجعة تتابعت عليها فأثرت فيها تأثيراً عنيفاً، فقد فقدت المسكينة في شهر واحد أباها وزوجها وأبنها الصغير، وكان حديث الولادة، وهكذا عندما يزور الموت منزلا أول مرة، يعود إليه ثانية كأنه يعرف الطريق. . . صرعها الحزن فلزمت الشابة البائسة فراشها وهي تهذي ستة أسابيع كاملة وتوالت عليها أزمات حادة ظلت بعدها خامدة عديمة الحركة، لا تكاد تتناول شيئاً من الطعام إلا

بالجهد الشديد، لا يتحرك فيها إلا عيناها، وفي كل مرة حاولوا تغير موضعها كانت تصرخن بشدة كأنما يراد قتلها، فتركت نائمة كما شاءت وتوفرت على خدمتها سيدة عجوز طيبة القلب كانت تقدم لهما الماء من وقت إلى آخر مع قطعة من اللحم البارد تلوكها بين أسنانها. . . ما الذي كان يدور بخلدها المشتت؟ أكانت تحلم بالذين ماتوا؟ لم يعرف ذلك أبداً، لأنها لم تتكلم أبداً، ولأن فكرها المضمحل، ظل عديم الحركة كالماء الراكد. ومرت خمسة عشر عاما وهي على تلك الحال؛ مغلقة النفس، خامدة الحركة. . . جاءت الحرب، وفي الأيام الأولى من ديسمبر، تغلغل البروسيون في كورمي.

وكان الجو باردا والثلج يتساقط، إني أذكر هذا اليوم كأنه الأمس القريب، وكنت ممدداً على كرسي مستطيل بجوار نافذتي مريضاً بداء المفاصل، أسمع وقع أقدامهم الثقيلة وخطواتهم الرتيبة، وأراهم من النافذة صفوفا لا

نهاية لها يبدون في حركاتهم المنتظمة كـأنهم دمـى تتحـرك بخيوط مشدودة، وقـد أمـر القائـد بتوزيـع الرجـال علـى سكان القرية فكان نصيبي منهم سبعة عشر رجلا ونصـيب جارتي البائسة اثنا عشر رجلا، بيـنهم القائـد وهـو رجـل عسكري قديم، حاد الطبع، غليظ الخلـق. قيـل لـه أثنـاء إقامته بالمنزل إن ربة الدار سيدة مريضة لم تفـارق فراشـها منذ خمسة عشر عاما متأثرة بحزن شـديد أصـابها ولكنـه لم يقتنع بهذا، من غير شك، فقد توهم أن الذي منعهـا مـن استقبالهم إنما هو كبرياؤها واشمئزازها أن ترى البروسيين أو تحادثهم، فطلب مقابلتها وأدخـل إلى غرفتهـا، فمـا إن رآها حتى خاطبها بصوت جـاف خشـن وبلهجـة ركيكـة فيها كثير من التحريف. . . أرجوك يا سيدتي أن تنهضي من فراشك وأن تنزلي لكي يراك الجميع. . . ولكن المرأة المسكينة أدارت نحوه عيونا مبهمة فارغـة ولم تجـب فأعـاد بلهجته الغريبة مرة ثانية. . إذا لم تنهضي بإرادتك فسنجد

وسيلة لإرغامك على نزهة فريدة. . ولكن المسكينة لم تأت بأي إشارة، كانت دائماً عديمة الحركة كأنها لا تراه، فتملكه الغضب، وظن أن السكوت منها علامة احتقار بالغ له، فأضاف مهدداً ـ إذا لم تنزلي يا سيدتي غدا. . . ثم أدار وجهه وانصرف.

وفي اليوم التالي، أرادت خادمتها العجوز الطيبة أن تلبسها ملابسها قبل أن يحضر الضابط ولكن المجنونة صرخت بأعلى صوتها في هياج شديد، ولم تجد أي محاولة معها. وفي هذه اللحظة صعد الضابط مسرعاً ليرى تنفيذ أوامره، فخرت الخادم على أقدامه مستعطفة صارخة، إنها لا تريد يا سيدي، أنها لا تريد، اصفح عنها، أنها بائسة تعسة.

ظل الجندي القديم، مشبكا ذراعيه كاظما غيظه، وفجأة انطلقت منه ضحكة عالية، وأعطى بالألمانية أمراً إلى رجاله، ورأى الرجالة يحملون المريضة بفراشها كما

يحملون جريحاً في الميـدان، ورأى في المـؤخرة رجـل يحمـل حزمة ملابس نسائية.

المجنونة ساكنة هادئة لا تقاوم، ولا تبـالي بالعواقـب، كأنها نائمة نومتها الهادئة في منزلها العتيق. فـرك الضـابط يديه سروراً قـائلا: سـنرى جيـداً إذا كنـت تسـتطيعين أن تلبسي وحدك، وأن تقومي بنزهة صغيرة. . الموكب يسير مبتعداً متجهاً إلى غابة ايموفي. . . وقد مضت ساعتان عاد الجند بعدهم منفردين. . . ولم تعد المجنونـة ثانيـة. . . ماذا صنعوا بها؟ والى أي مكـان حملوهـا؟ لم يعـرف أحـد ذلك مطلقاً. الثلج يتساقط ليلا ونهـاراً، وبـدا الـوادي في نعومة المخمل، أما الغابة فقد كفنها الجليد بثوب من الزبد المثلج، والذئاب تعوي حتى أبواب المنازل، وذكرى هـذه المرأة المفقودة لا يفارقني.

قمت بجولات متعددة قريباً من مناطق البورسيين مؤملا الحصول على معلومات عنها ولكني لم أفز بطائل، فظننت أنهم ربما قتلوها رمياً بالرصاص.

عاد الربيع، وابتعد الجيش عن القرية ومنزل جارتي المسكينة ظل مغلقاً تنبت الحشائش في أبهائه، والخادم العجوز في أثناء الشتاء، ولم يعد أحد يشغل نفسه بهذه الحادثة، ولكني ـ أنا نفسي كنت أحلم بها بلا انقطاع.

ماذا صنعت هذه المرأة؟ أهربت مخترقة الغابة؟ أم عثر عليها بعض المارة فأدخلها مستشفى قبل أن يستطيعوا الحصول على معلومات عنها؟

لم أجد ما يخفف حدة الشك في نفسي، ولكن الزمن خفف هذا الألم شيئاً فشيئاً. وجاء الخريف، وتتابعت أسراب الطيور البرية، واسترحت من مرضى قليلا فاندفعت نحو الغابة للصيد، وأصبت خمساً أو ستاً من ذوات المنقار الطويل، وكنت أبحث عن واحدة وقعت في

حفـرة صـغيرة وسـط فـروع الأشـجار، واضـطررت إلى النزول في الحفرة لالتقاطهـا، ولكـني سـقطت علـى رأس ميتة، وفي الحال ترددت في صدري ذكـرى المـرأة المجنونـة كأنها لكمة قويـة، لقـد كنـت متأكـداً أنـي سـأقابل هـذه البائسة يوماً ما، وفجأة فهمت، وفرضت كل شيء، لقـد حملها البروسيون إلى هذه الغابة الباردة وأهملوها، وتركت المسكينة نفسها الخاوية تموت تحـت وطـأة الـبرد، وزغـب الثلج المساقط، لا تحرك يداً ولا رجلا، ثم جاءت الـذئاب الجائعة فافترستها، والطيـور بنـت أعشاشـها مـن صـوف فراشها الممزق.

حفظت هذا الحطام الحزين، وأقمت له النذور ودعوت الله ألا يرى أولادي الحرب أبداً.

في الريف...

هناك في منحدر التل الواقع بقرب مجرى النهر، وفي كوخين حقيرين متجاورين، كان يقطن فلاحان يشتغلان بكد وعناء ليخرجا من الأرض المجدبة ما يقوم بأودهما وأود عيلتيهما الفقيرتين. . .

وكان يقيم في كل كوخ منهما أربعة أولاد تتراوح أعارهما بين الست سنوات والخمسة عشر سنة، وكثيراً ما كان هؤلاء الأولاد الثمانية يتجمعون بمقربة من الكوخين ويظلون في لهو دائم ومرح مستمر من الصباح إلى الغروب.

وكان كلا الفلاحين متزوجان، وكلاهما ينجب الأولاد بنسبة واحدة وفي وقت واحد تقريباً! وكانت كل أم من الأسرتين تميز أولادها بصعوبة من بين أولاد الأم الأخرى، ولا سيما حينما كانوا يلعبون جميعاً أمامهما!

وكان الأبوان يخلطان في كثير من الأحيان بين أولادهما وبين أولاد الأب الآخر! وكم كان فكهـا إذا أراد أحـدهما أن يدعوا ولداً من أولاده أن يردد على الأقل اسم ولدين أو ثلاثة قبل أن تنطق شفتاه باسم الولد الذي يريده!

وكانت عيلة توفاسن تسكن في الكوخ الأول ولها ثلاثة أولاد وبنت، في حين أن عيلة فالنس التي كانـت تقطـن في الكوخ الآخر لها ثلاثة بنات وولد.

ففي ظهر يوم من أيام شهر أغسـطس الحـارة، وقفـت مركبة صغيرة أنيقة أمام هذين الكوخين، وقالـت السـيدة الصغيرة التي كانت تقود المركبة لزوجهـا الشـاب الجـالس بجوارها حينما وقـع بصـرها علـى الأولاد الثمانيـة الـذين كانوا يلعبون وقتئذ أمام الكوخين:

ـ أنظر يا هنري إلى هؤلاء الأطفال السعداء.

ثم أشارت بيدها إلى طفل منهم كـان يتمـرغ مـع آخـر على الأرض وقالت:

ـ ما أظرف هذا وهو يتقلب على الأرض بفرح وسرور ويمرغ نفسه في التراب مع زميله الآخر!!

فلم يجب زوجها على ملاحظتها بشيء على حين استطردت السيدة قائلة:

ـ كم أود أن أقبل هؤلاء الأطفال جميعاً!!

ثم تنهدت تنهدة عميقة حارة صادرة من قلب يائس مكلوم وتابعت حديثها إليه فقالت:

ـ كم اشتهي يا هنري أن يكون لدينا ولد من هؤلاء الأولاد ولا سيما هذا الولد الواقف هناك بمفرده، وأظنه أصغرهم سناً.

قالت ذلك ثم قفزت من المركبة بخفة ونشاط وهرعت نحو الأطفال وأمسكت بالولد الذي أشارت إليه ورفعته بين ذراعيها وأخذت تقبل خديه القذرين وشعره المجعد المعفر بالتراب، ويديه الصغيرتين اللتين كان يحاول أن يخلص نفسه بهما من بين يديها اللتين كانتا تمسكان به

بحنان بالغ ورفـق عظـيم، ثـم تركتـه وعـادت إلى المركبـة منصرفة إلى حال سبيلها.

وفي الأسبوع التـالي عـادت هـذه السـيدة مـرة أخـرى وجلست تشاطر الأطفال ألعابهم كمـا لـو كانـت واحـدة منهم! وقد أحضرت لهم معها في المركبة في هذه المرة كمية كبيرة من الكعك والفطـائر والحلـوى، وأخـذت تقـدمها إليهم وتوزعها عليهم بنفسها، بينما كان زوجها، واسمـه هنري دوبرييه، ينتظرها في المركبة على مضض، وينظر إلى ما يجري حوله بشيء من الدهشة والغرابة.

وصارت تلك السيدة الرحيمة الطيبة القلب تتردد على الكوخين من وقت لأخر، وكانت تحشو حقيبتها وجيوبها في كل مرة بالحلوى التي كان يتقبلها الأطفال منها بكل لذة وسرور.

وبمرور الأيام تعرفت مدام دوبرييه إلى كل من العائلتين المتجاورتين، وعرضت عليهما صداقتها التي كانت لها أحسن وقع وأجمل أثر في نفوسهما الحزينة البائسة.

وفي صباح يوم نزل المسيو هنري دوبرييه من المركبة واصطحب زوجته معه ثم دخلا كوخ ال توفاسن دون أن يخاطبا في هذه المرة أحداً من الأطفال الذين كانوا قد تعلقوا بهما وأحبوهما حباً جماً.

وكان توفاسن وزوجته موجودين في الكوخ في ذلك الوقت فدهشا لدخول مدام دوبرييه وزوجها الفجائي، وقدما أليهما مقعدين نظيفين، وانتظرا بفارغ صبر ما ستقوله لهما هذه السيدة التي بدأت حديثها وقتئذ بصوت خافت ولهجة مترددة:

ـ لقد أتينا لزيارتكما اليوم، لأننا نريد أن نتبنى ولدكما الأصغر شارلوت. فذهل توفاسن وزوجته لقولها وعقدت الدهشة لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة. ولكن

مدام دوبرييه لم تكترث لدهشتهما البالغة وتابعت حديثها فقالت :

ـ ليس لدينا أطفال ولهذا نـود أن نتبنـى ابنكمـا ، فهـل تقبلان ذلك؟

وهنا بدأت مدام توفاسن تفهم ما تعنيـه مـدام دوبرييـه بهذا الكلام فقالت لها بلهجة لا تخلو من الاستنكار :

ـ هل معنى ذلك أنكما تريدان أن تأخذا ولدنا شارلوت منا؟

فتدخل المسـيو هنـري دوبرييـه عنـد ذلـك في الحـديث وقال :

ـ إن زوجتي لم تبين لكمـا غرضـنا تمامـاً ، فكـل مـا في الأمر أننا نرغب في أن نتبنى طفلكما الصغير ، وليس معنـا ذلك أننا سنحول بينه وبين زيارتكما ، بل أننـا سـنترك لـه مطلق الحرية في الـتردد عليكمـا في أي وقـت ، وإذا سـلك معنـا مسـلك حسـناً ـ وهـو مـا ننتظـره منـه في المسـتقبل ـ

فسنجعله وريثناً الوحيد، وحتى إذا أنجبنا أطفالاً في المستقبل فسنشركه مع أبنائنا في الميراث. وإذا لم تثمر فيه تربيتنا وتعليمنا، فأننا لن ندعه وشأنه كما يفعل بعض الناس، بل سنعطيه حينما يبلغ أشده عشرين ألفاً من الفرنكات وسنودع هذه المبالغ باسمه في أحد المصارف الكبيرة على أن يسحبه إذا بلغ سن الرشد ضماناً لحسن تصرفه فيه، وزيادة على ما تقدم فإننا سنمدكما بمنحه شهريه قدرها مائة من الفرنكات مدى الحياة.

ولكن أبت عقيلة مدام توفاسن البسيطة الساذجة إلا أن تفهم هذا القول على غير حقيقته، وتؤوله تأويلا آخر، واستبد بها الحنق والغضب عندئذ فقالت:

ـ أتريدان منا أن نبيعكما ولدنا شارلوت في نظير جاهكما العريض، وثروتكما الطائلة؟ هذا محال. . . محال!!

وكان يبدوا على محيا توفاسن ـ زوجها ـ علامات التردد والتفكير العميق دون أن ينبس طول هذه المدة ببنت شفة، ولكن كان يلوح عليه أنه موافق على اعتراض زوجته بدليل أنه كان يهز رأسه من وقت إلى آخر موافقة منه وتأييداً لقولها!!

وبدأ اليأس يتطرق حينئذ إلى نفس مدام دوبرييه فحولت وجهها شطر زوجها وقالت له بصوت مكتئب حزين:

ـ هنري! إنهما يمانعان في أن نأخذ ولدهما شارلوت معنا!

وحاول المسيو هنري دوبرييه أن يقنع الزوجين العنيدين لآخر مرة فقال: فكرا جيداً في مستقبل ولدكما وهنائه قبل أن ترفضا هذا الطلب نهائياً. . .

فهزت مدام توفاسن كتفيها بسخرية واستخفاف وقاطعته بقولها: لقد فكرنا يا سيدي في كل هذا من قبل،

والآن أرجو منكما أن تكفا عن الكلام في هذا الموضوع ولا تحاولا إثارته مرة أخرى. وبينما المسيو هنري دوبرييه وزوجته يهمان بالخروج إذ فتح باب الكوخ في تلك اللحظة ودخل منه ولد صغير يشبه شارلوت إلى حد كبير حتى أن من يراهما لأول وهلة يظن أنهما توأمان! فلما وقع بصر مدام دوبرييه عليه سألت زوجة توفاسن قائلة: هل هذا الولد الصغير ابنكما أيضا؟؟ فأجاب توفاسن باقتضاب وهو يحك بيده لحيته البيضاء الكثيفة الشعر: كلا أنه جان فالنس، ابن جارنا الآخر الذي يقطن في الكوخ المجاور، ويمكنكما أن تحاولا أخذه منه إذا استطعتما ذلك!!

فرد عليه المسيو هنري دوبرييه بحزم وإصرار وقال: سنحاول ذلك بكل تأكيد! فأبتسم توفاسن ابتسامة عريضة ما كرة وقال له وهو يهم بالوقوف لتوديعه: إذن أرجو لكما النجاح والتوفيق في مهمتكما!! ولما دخلت مدام

دوبرييه وزوجها الكـوخ المجـاور، وعرضـا علـى فـالنس وزوجته اقتراحهما السابق، رفض الزوجان هذا الاقـتراح في بادئ الأمر، ولكن مدام دوبرييه وزوجهـا مـازالا بهمـا حتى أقنعاهما بوجاهة فكرتهمـا، وصـواب رأيهمـا، ولا سيما حينما ذكرا لهما المبلغ الذي سيمنحانه في كل شهر!! وبعد فترة قصيرة وجهـت مـدام فـالنس حـديثها لزوجهـا فقالت ما رأيك في هذا العرض السخي يا زوجـي العزيـز؟ فأجابها زوجها وهو يفتل بيده الخشـنة شـاربيه الكثـيفين: إنـني لا أمـانع في ذلـك يـا عزيزتـي، ولـيس عنـدي أي اعـتراض مطلقـاً. وتكلمـت مـدام دوبرييـه حينئـذ عـن مستقبل الطفل، وسعادته، وعن النقود الكثيرة التي سوف يمد بها عائلته في المستقبل. فلما أتمت كلامها سألها فالنس وقـد ارتسـمت علـى شـفتيه ابتسـامة الرضـا والارتيـاح، وشـاعت الغبطـة والسـرور في قسـمات وجهـه الكـثير التجاعيد: وهل سنأخذ المائة فرنك على يد أحد المحامين؟

فأجابه المسيو هنري دوبرييه وهو يهـز رأسـه موافقـاً: بـلا شك . . . بلا شك!!

وأرادت مدام فالنس أن تنتهز الفرصة فتزيد هـذا المبلـغ قليلا فقالت لمدام دوبرييه وهي تنظر مـن طـرف خفـي إلى زوجها نظرة ماكرة ذات معنى:

ـ أظن أن المائة فرنك ليست بالمبلغ الكافي في نظير انتزاع ولدنا منا لأنه سيصبح بعد بضع سنوات قادراً على العمـل والكسـب، ولـذا يستحسـن أن يكـون هـذا المبلـغ مائـة وعشرين فرنكا في الشهر!! فوافقـت مـدام دوبرييـه علـى ذلك بعد قليل من التردد دون أن يخفى عليهـا جشـع مـدام فالنس وشدة طمعها!!

ولكي تثبت للزوجين الفقيرين مدى غناهـا وجودهـا، فقد أخرجت من حقيبة يدها مائة وعشرين فرنكا وأعطتها لمدام فالنس التي تناولتها منها بمزيد من الغبطة والسـرور، في حين جلس زوجها هنري يكتب شـروط الاتفـاق بتـؤدة

وإمعان، فلما انتهى منه استدعى عمدة القرية وأحد الشهود فوقعا معه على العقد الذي أصبح قانونياً من كل الوجوه. . .

وخرجت مدام دوبرييه من الكوخ فرحة مسرورة لنجاح مسعاها، وتوفيقها في مهمتها، في حين كان الطفل الذي حملته بين ذراعيها يبكي بحرقة وحرارة لفراق والديه وتخليهما عنه، ويحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها ولكن بلا فائدة. . .

وشاهد توماس وزوجته رحيل الطفل جان بوجهين كالحين. والظاهر أنهما قد لاما نفسيهما على رفضهما التنازل عن ولدهما شارلوت، وندما ـ بعد فوات الوقت ـ على ضياع هذا الكنز الثمين منهما!!

ولم يسمع أحد من أهل القرية شيئاً عن جان فالنس لمدة طويلة من الزمن. وكان أبواه يذهبان في أول كل شهر

إلى مكتب المحامي فيتسلمان منه المائة والعشرين فرنكا ثم يعودان إلى كوخهما آمنين مطمئنين. . .

وساءت العلاقات حينئذ بين عائلة فالنس وبين عائلة توفاسن التي كانت تعيرها وتحط من شأنها أمام أفراد القرية لأنها فرطت في ولدها جان وباعته لمدام دوبرييه وزوجها بيع السلع! وكانت مدام توفاسن تمسك بولدها شارلوت من وقت لآخر وترفعه بين ذراعيها ثم تخاطبه بقولها:

ـ إنني لم أبعك ولن أبيعك يا ولدي العزيز بالرغم من أنني لست غنية كما تعلم ويعلم جميع الناس. . .

وكانت لا تفتأ تردد هذه العبارات التهكمية وأمثالها في كل يوم بلهجة ساخرة وبصوت عال مسموع كان يصل في كثير من الأحيان إلى مسامع فالنس وزوجته! وبلغ الغرور بمدام توفاسن إلى حد إنها كانت تزعم نفسها أعظم شأناً من أهل قريتها جميعاً، وأرفع منزلة منهم وأعلاهم مقاماً،

لا لشيء إلا لأنها لم تبع ولدها شارلوت! ولم يغب هذا الغرور عن أهل القرية أنفسهم ولم يفتهم أن يلاحظوا عليها ما كانت تدعيه من العظمة المصطنعة والخيلاء الكاذب، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يفتئون يرددون أمامها أنها سلكت مسلك الأمهات الطيبات القلب!! ولما بلغ شارلوت الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى على أقرانه، ويعتقد ـ كوالديه ـ أنه أعلى منهم مرتبة وأسمى مكانه لأن أمه المحبة لم تبعه كما باعت مدام فالنس ولدها جان!! وبينما كانت عائلة فالنس ترتع في بحبوحة العز والرفاهة، كانت عائلة توفاسن لا تزال على ما هي عليه من الفقر المدقع والفاقة البالغة! وكان يسار أسرة فالنس وغناها هما السر في هذا البغض، والباعث على تلك الكراهية التي كانت تبديها عائلة توفاسن نحوها في كل وقت وفي أي مناسبة!! وبعد مضي مدة انخرط الابن الأكبر لمدام توفاسن في سلك الجندية، بينما توفى ولدها الآخر إثر مرض خطير

ألم به ولم يمهله إلا بضعة أيام. أما شارلوت فقد ظل في القرية ليساعد والده الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً، وليعين أمه العجوز وأخته الوحيدة على العيش ومكافحة صعاب الحياة. وكان شارلوت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره حين وقفت في صباح يوم مركبة صغيرة جميلة أمام الكوخ المجاور، ونزل منها شاب قوي وسيم الطلعة، أنيق الثياب، . ثم دخل الكوخ بقدمين ثابتتين، وخطوات متزنة واسعة. . . وكانت مدام فالنس تغسل ثيابها في ذلك الوقت، بينما كان زوجها الذي بلغ من العمر أرذله يستدفئ بنيران المدفئة. وقبل أن يفيق الولدان من دهشتهما تقدم الشاب ـ ولم يكن إلا ابنهما جان فالنس نفسه ـ نحوهما وقال لهما وهو يمد كلتا يديه لمصافحتهما: أسعدتما صباحا يا والديّ العزيزين. . .

فهب الأب من مكانه دهشاً مذهولاً، وعقدت المفاجأة السارة لسانه عن النطق، بينما ألقت الأم بقطعة الصابون

في الوعاء الذي كانت تغسل فيه ثيابها لفرط اضطرابها ودهشتها وهرعت نحو ابنها الذي لم يكن قد زارها منذ أن اصطحبته مدام دوبرييه معها، وقالت له بصوت مضطرب مرتعش النبرات وهي تتأمله بزهو وإعجاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه: هل أنت حقاً ولدنا جان؟؟ فضمها الشاب إلى صدره بحنان ورفق وقال لها وهو يضحك ملء شدقيه: نعم إنني ولدكما جان! وقد جئت اليوم لزيارتكما بعد أن أصبحت أحد المحامين الذين يشار إليهم بالبنان وسأمكث في ضيافتكما بضعة أيام. فقال له الأب بصوت يرتجف من فرط الانفعال وشدة الفرح والسرور: على الرحب والسعة يا بني العزيز. وبعد أن استرد أنفاسه اللاهثة استطرد في حديثه فقال: كم أنا سعيد بلقائك يا والدي، ولا سيما بعد أن أصبحت رجلا كامل الرجولة. . . ولما أفاق الأب والأم من دهشتهما صمما على أن يقدما ولدهما جان إلى أهل القرية جميعاً. فعرفاه أولاً

بعمدتهما وقسيسها وناظر مدرستها. ثم عرفاه أخيراً بباقي أفراد أهل القرية الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وسرور عظيم. وشاهد توفاسن كل هذا بعين دامعة تفيض بالألم والهم والعذاب، ونفس حزينة تملاها الحسرة والندم على ما فات! وقد تغيرت نظرته إلى الحياة بعد ما رأى جان فالنس في ملبسه الأنيق وثيابه الغالية وشبابه الحيوي الفياض، بينما هو لا يزال في فقره المدقع وأسماله الرثة البالية، وفي المساء حينما اجتمع شارلوت بوالديه حول المائدة، قال لهما بصوت باك حزين تخنقه العبرات: أظنكما رأيتما جان فالنس في هذا الصباح وشاهدتما ما هو عليه الآن من وسامة الشكل وفخامة الثياب؟ فأجابته أمه باكتئاب دون أن يفوتها تغير ابنها الفجائي غير المنتظر: نعم يا بني! لقد شاهدنا كل ذلك! ولكننا لم نشأ أن نبيعك إلى مدام دوبرييه وزوجها كما فعلت مدام فالنس وزوجها بابنهما جان! لأننا رأينا أن في ذلك عاراً عليك وإثماً في

حقك كما هو عار علينا وإثم في حقنا أيضاً . . . ولم يفه والده أثناء ذلك بكلمة واحدة، بينما استمر الابن في حديثه الساخط المؤلم فقال :

ـ إنها لغباوة منكما حقاً أن تدعا جان فالنس يذهب مع مدام دوبرييه وزوجها بدلا مني! وإنه لمن سوء حظي أيضاً أنكما لم تضحيا بي بسبب حنانكما وغروركما وأنانيتكما . . . وهنا تدخل الأب في الحديث فقال موجهاً كلامه لأبنه : هل تلومنا الآن يا ولدي لأننا لم نشأ أن نفرط فيك كما فرطت مدام فالنس وزوجها في ولدهما جان؟ ولكن شارلوت لم يأبه لدفاع والديه بل هز كتفيه ساخراً واستمر في ثورته فقال : نعم إنني ألومكما لأنكما فوتما علي هذه الفرصة التي قلّ أن يجود الدهر بمثلها . وإن الآباء والأمهات أمثالكما كثيراً ما يجنون على أولادهم بجهلهم، ويحطمون مستقبلهم بمثل هذا الحنان الضار، والحب المرذول، والأنانية الممقوتة . فقالت له أمه وقد حز في

نفسها حديث ولدها المؤلم وثورته الصاخبة: هل هذا جزاء حبنا لك واحتفاظنا بك؟ فأجاب شارلوت وهو يكاد يبكي من شدة الحنق والغيظ وقد اعتمد ذقنه براحة يده: كم أتمنى الآن لو لم اكن قد ولدت حتى لا أظل في هذه الحالة المؤلمة التي أنا عليها الآن. وبعد لحظة سكوت قصيرة تابع حديثه إليهما فقال بلهجة أشد وأعنف من الأولى: إنني عندما رأيت جان فالنس في صباح هذا اليوم وهو ينزل من مركبته الأنيقة الفاخرة جرت دماء الحقد والغضب حارة في عروقي وقلت مخاطبا نفسي: (لو قبلت عائلتي ما عرضته عليها مدام دوبرييه وزوجها من قبل، لكنت الآن في مركزه وظل هو في مركزي). قال ذلك ثم نهض من مقعده فجأة وقال لهما وشرر الغضب يتطاير من عينيه الدامعتين، والحنق الكامن في أعماق نفسه الثائرة يلوح على أسارير وجهه الحزين المكتئب: إنني لن اغتفر لكما هذه الغلطة ما حييت، وقد استقر رأيي الآن على

مغادرة هذه القرية إلى الأبد، والنزوح إلى قرية بعيدة نائية لا يعرفني فيها أحد ولا أعرف بها أحداً، لأكسب فيها عيشي بعيداً عنكما وعن أهل هذه القرية جميعاً. قال ذلك ثم فتح باب الكوخ بسرعة وهرع إلى الخارج بعد أن صفق الباب وراءه بشدة وعنف حتى لا يتمكن والداه من اللحاق به وإثنائه عن عزمه، ثم سار في الطريق مسرعاً على غير هدى واختفى في ظلام الليل الحالك السواد.

مجنون!...

مات الرجل الفذ الذي اهتزت له مجالس القضاء الفرنسية قاطبة، وانحنت لموته رؤوس الحقوقيين وأعضاء مجالس الشورى انحناء احترام وخضوع لوجه الهزيل الذي كانت تضيئه نظراته الحادة.

كان عدو اللصوص والقتلة لأنه الوحيد الذي يقرا أفكارهم الرهيبة ويكتشف أسرار الجرائم التي ارتكبوها، فبنظرة واحدة إلى إحداهم يعرف أسراره المدفونة.

مات الرجل في الثانية والثمانين من العمر، فشيعت نعشه حسرات شعب كامل؛ وسار وراءه جنود الحكومة لابسين البناطيل الحمر؛ يتقدمهم أعاظم رجالات فرنسا ويندبه أصحاب الربطات البيضاء بدموع صادقة.

وقد وجدوا بعد موته في غرفته الخاصة التي تحوي أوراق كبار المجرمين مذكرات بعنوان (لماذا)

٢٠حزيران سنة ١٨٥١ :

انتهت جلسة اليوم بعد حكمي على بلوندل بالإعدام .

لم قتل هذا الرجل أولاده الخمسة؟ ولم تظهر علائم اللذة على هؤلاء إذا قضوا على غيرهم؟

نعم! نعم! يجب أن يكون القتل لذة، ولعلها تكون اعظم اللذات جميعها! أليس للموت شبه عظيم بالحياة؟

الحياة والموت!!

كلمتان تتألف منهما قصة المجتمع، نعم المجتمع كله؛ أي كل ما هو كامل؟ إذا لماذا يولع الإنسان بالقتل؟

٢٥ حزيران :

فكر في مخلوق حي، يسير وينظر ويضحك. . . مخلوق؟!

ما هو المخلوق؟

هو كائن يحيا بحركة نظامية، وبفكر ثاقب يدير تلك الحركة الكامنة فيه، ولا يشغل هذا الكائن فراغا لان

رجليه اللتين يسير بهما لا تتعديان وجه الأرض. إذن فهو حبة حياة متحركة لا أدري مم تكونت! تبدو بسيطة كأحقر الأشياء وأتفهها كان لا قيمة لها مطلقا.

٢٦حزيران:

لم يعد القتل جريمة؟ نعم لماذا؟

فقانون الطبيعة لا يعاقب القاتل، والقتل كما أرى فريضة على كل كائن: فانه يقتل طلبا لعيش رغيد؛ يقتل لأنه عرف لذة القتل؛ فالحيوان يقتل في كل لحظة من وجوده ـ والرجل لا ينقطع عن القتل، بل يقتل ليتغذى، ويرى في القتل ضرورة، لذلك رأى في الصيد لذة ـ وقد لا يشعر الطفل بالنشوة ألا إذا خنق صغار الحشرات وصغار العصافير التي تصل إليها يده؛ وكل هذا لا يطفئ شهوة القتل الملتهبة فيه.

لم يكفه الحيوان فعدا على رفيقه الإنسان. وقديما كانت القرابين البشرية تقدم للآلهة، فاستعيض عنها حديثا

بـالجرائم الـتي جعلـت القتـل جريمـة يكافحهـا القـانون بالإعدام أو بالسجن!

والحقيقة أننا لا بد أن نؤدي واجبنـا نحـو هـذه الغريـزة الطبيعية التي ينتج عنها الموت الوشيك. وكثيرا مـا تخفـف غلواؤنا عندما نرى أمم الأرض تتطاحن، ونسمع بشعوب تـذبح أخـرى، وتكـون هنـاك مجـازر دمويـة تهـيم بهـا الجيوش؛ فترى أهـالي المـدن الـثملين بخمـرة النصـر مـع نسائهم وأولادهـم يطـالعون بانتبـاه علـى ضـوء المصـباح أخبار مجازرهم الفظيعة.

هل فكر أحد بان شـعوب الأرض تكـره تلـك المـذابح التي نسميها الحروب. أبـدا! إذا فلـم نـثني علـيهم بشـتى أنـواع الثنـاء، ونلبسـهم الجـوخ الـثمين محلـى بالـذهب الوهاج، ونقلدهم أوسمة يحلون بها صدورهم، ثم نغدق عليهم ألقابا عظيمة فستصبح (مودة) النساء لهـم مسـخرة مع إرادة الشعوب عامة، أليس ذلك لأنهم مسخرون لقتل

الإنسان؟ إذن فالقتل نظام أودعته الطبيعة صدر الإنسان ليصيب السعادة الدائمة والشرف الرفيع!

القتل هو القانون، والطبيعة تحب الشباب الخالد، فتحث أبناء الحياة على ترك الحياة، وكلما أهلكت رطلا أحيت آخر مثله.

٢تموز:

الكائن؟! ما هو الكائن؟

هو كل شيء، وهو لا شيء؛ فهو انعكاس الكون. وتصغير العالم، هو تاريخ، وشكله مرآة لأعماله، فكل مخلوق محيط في هذا العالم!

ارحل وابحث عن الأجيال ترى الكائن لا شيء. اصعد في زورق وابعد عن الشاطئ المزدحم بالمخلوقات فلا ترى شيئا بعد برهة، ومن هنا نستدل على حقارة الإنسان. اقطع أوربا بالقطار السريع وتطلع من بابه الصغير ترى رجالا لا يحصون مجهولين، يحرثون الحقول. . .

ويتراكضون في الشوارع، وفلاحين بلهاء لا يعرفون سوى فلح الأرض مع نسائهم السمجات اللاتي لا يتقنّ سوى طبخ الحساء لرجالهن وأولادهن.

اذهب إلى الهند، إلى الصين، تجد الحال هي الحال: أناس يولدون ويشقون ثم يموتون دون أن يتركوا أثر نملة.

زر بلاد الزنوج الآوين إلى بيوت من الطوب؛ زر بلاد العرب البيض القابعين تحت خيامهم القاتمة المتموجة مع الرياح تر حقيقة المخلوق المنعزل الذي نعتناه بلا شيء.

والعقلاء من البدو والحضر ينظرون إلى الموت نظرهم إلى المر الذي لا بد منه، فلا يكترثون له. والجريمة كذلك في نظر البدو الذين نشأوا وتأصلت في نفوسهم منذ نشأتهم فكرة الأخذ بالثأر كأنها شيء طبيعي. أما أهل الحضر فلا يتأثرون بهذه الجرائم وان كانت أفكارهم لا تتعدى حدود اعتبارها أمرا طبيعيا لازما لإطفاء شهوة القتل، والقتل تنتقل عدواه من بيت لآخر ومن مقاطعة لأخرى.

تأمل في أشخاص العالم المجهولين!

المجهولين؟

وصلنا أساس البحث!؟

قلنا إن القتل جريمة لان القانون أحصى عدد المخلوقات وسجلها وأطلق عليها أسماء عديدة، ثم قدّسها رجال الدين فإذا هي في حمى القانون يدفع عنها عدوان القتلة السفاكين؛ والمولود الذي لا يسجل لا يعترف القانون بوجوده.

الطبيعة تحب الموت، ولا تعاقب القتلة؛ وهي نفسها تدافع عن الإنسان الذي جعله القانون سلعة في يده يفعل به ما يشاء، لأنه خول لنفسه الحق فيه، فتراه بعد مئات الألوف للحرب منتظرا أن يسقط أسمائهم من سجلاته. ولكننا نحن الضعفاء لا يمكننا تبديل أي اسم ولو من سكان الاقضية، بل الواجب علينا أيضاً احترام حياة الكائن، مع احترام سلطة الحكومة المدنية التي تملك الهياكل البلدية.

قف وادع الله يا ابن الطبيعة!

٣تموز:

في القتل غرابة ولذة مقرونتان بالسرور؛ فإذا كان المخلوق الحي العامل تحت سلطتك وتمكنت من عمل جرح صغير واحد في جسده ووقفت ترى المادة اللزجة الحمراء تسيل أمام عينيك ثم يفقد ذلك الجسم الحياة، فلا ترى بعد أذن كتلة لحم لين، بارد عديم الحركة التفكير.

١٥آب:

لقد قضيت حياتي بالمحاكم، اعدم، وأميت، بكلام رقيق يخرج من فمي، وتنفذه المقصلة في الذين أماتوا بحد السكين، أنا! أنا! ماذا يكون مصيري إذا أصبحت أحد هؤلاء القتلة!؟ من يدري؟

١٥آب:

من يدري؟ لا أحد!

أيفكر امرؤ باني قاتل ولا سيما إذا انتقيت كائنا لا فائدة تعود علي من حذفه؟

١٧آب :

الشهوة، الشهوة، نعم، تملكتني شهوة القتل كالدودة حابية في جسمي وفي عقلي، إني متعطش إلى رؤية الدم وبجانبه الموت، حيث تسمع أذناي صوتا فضيعا ينادني، ويذكرني بآخر صرخة تخرج من المحتضر. لعل في القتل لذة، وخصوصا إذا كانت الضحية كائنا مطلق الحرية وأسعها يملك قلبه الهادئ الرزين بنفسه.

٢٢آب :

لا يمكنني الصبر، قتلت حيوانا إطاعة لتلك النزعة الحمقاء التي تغالبني.

لخادمي (جان) عصفور في قفص ثمين ومعلق بنافذة الدار، وقد أرسلت خادمي ذات يوم لقضاء حاجة، وبعد أن ذهب أخذت العصفور الصغير في يدي فشعرت بجسمه

الحار، وبنبضات قلبه المتفاوتة، ثم صعدت إلى غرفتي، وأخذت اضغط عليه شيئا فشيئا إلى أن أحسست بدقات فؤاده السريعة. لقد كان المنظر وحشيا مع فظاعته. كدت اخنقه. ولكن لا فائدة لأني لن أرى دمه يسيل، فأخذت المقص وجعلت رقبته ثلاث قطع؛ ففغر المسكين فاه، وأراد التخلص بكل ما أوتي من قوة، ولكن أنى له ذلك ويداي كالحديد تطوقان عنقه؟ لقد كان عملي يسترعي الدقة والانتباه، فكنت أعمل بتؤدة!!

الدم!. . . الدم!. . . ما أجمله!!

أحمر قان، صاف! لقد أردت أن أخضب به لساني، وفعلا كان ذلك! أن هذه الكمية القليلة لا تبعث النشوة، لكنها لذيذة! ضاق نطاق الوقت للتمتع بهذا المنظر؛ فقد حان حضور خادمي.

آه! لو كان بدل هذا العصفور ثور لكان أبهى وألذ.

يا له من شقي! لأني أصبحت كالقتلة: غسلت المقص بيدي، وحملت الجثة الهامدة إلى مثوى أعددته لها في الحديقة، ودفنتها تحت شجرة (فريز).

لا يمكن لأحد معرفة هذا المكان، وسآكل كل يوم حبة من هذه الشجرة الحمراء.

بكى خادمي عصفوره كثيرا بعد عودته، وظن انه طار من قفصه أيمكنه اتهامي!؟ لا. . . لا. . . !!

٢٥آب:

الأمر بسيط: ذهبت للنزهة مرة في غابة (فيرن) لا أفكر في شيء مطلقا، وإذا ولد صغير يأكل خبزا عليه قليل من الزبدة على قارعة الطريق. وقف ليراني مارا بجانبه، وعندما اقتربت منه حياني قائلا:

ـ نهارك سعيد، يا سيدي الرئيس.

وهناك. . . طرأت علي فكرة (قتله) فرددت عليه:

ـ أنت وحدك هنا يا ولدي؟

ـ نعم يا سيدي الرئيس .

ـ ألا يصحبك أحد من أقاربك أو أصدقاؤك في هذه الغابة العظيمة المقفرة؟

ـ أبدا يا سيدي الرئيس .

لقد عصفت في رأسي شهوة القتل وأثرت في نفسي كما تفعل الخمرة براس شاربها .

اقتربت منه ببط خوفا من أن يفر كما كان يخيّل ألـيّ . ضغطت على عنقه بعنف ، فنظر ألي بعينين تحاكيان البحر عمقا والسماء صفاء و . . . لم اشعر طول عمري بمثل هذا الإحساس الغريب الذي سيطر عليّ . لقد أمسكت يديه الصغيرتين بساعديّ القويتين المفتولتين ، بينما كان جسمه يتطاير في الهواء كما تتطاير ريشة الطير على سفود . ثم همت حركته ووقفت أنفاسه . وهنالك أحسست بتواثب دقات قلبي العنيفة ؛ مسكين ذلك

الصغير، لقد رميت جثته في حفرة وغطيتها ببعض الحشائش ثم عدت.

تناولت غدائي هادئ الأعصاب كأني لم آت شيء! لقد شعرت بخفة نفسي التي عادت فجددت شبابها الأول، وقضيت سهرة الليلة عند مدير الناحية. انهم وجدوني سريع النكتة، خفيف الروح في تلك الليلة، ولكني لم أر الدم، لذلك لم أك مطمئنا تمام الاطمئنان.

٣٠آب:

عثروا على الجثة، والسعي جار لمعرفة القاتل؛ أنا مطمئن فلم يرفع الستار عن المجرم.

أول أيلول:

أوقف قاضي التحقيق رجلين من عابري السبيل كانا يجوبان تلك الناحية، وقد أخلى سبيلهما لان الأدلة غير كافية أدانتهما.

٢ايلول:

بكى أهل الطفل أمامي متضرعين!! ألا ما أعذب قولهم!

٦تشرين أول:

إن شهوة القتل تمتلكني وهي متأصلة في عروقي، تجري مع دمي، وهذا ما يدفعني إلى القتل كابن العشرين عندما يتيمه الحب.

٢٠تشرين أول:

جريمة أخرى:

ذهبت بعد الغداء ناحية النهر أتريض، وهناك رأيت صيادا نائما تحت شجرة حور، وكان الوقت ظهرا. تطلعت حولي فإذا بمعول في أرض مجاورة مزروعة بطاطس، فأخذت المعول، ثم عدت أدراجي إلى الصياد، فرفعته بين يدي كالهراوة وضربته ضربة واحدة بحد ذلك المعول قطعت رأسه. تدفق الدم الوردي الخداع بغزارة، وانحدر إلى ماء النهر الجاري!

عــدت أدراجــي بخطــوات مريبــة، آه، . . . ! لــو شاهدوني لعرفوا فيّ قاتلا وحشيا مريعا.

٢٥تشرين أول:

أحدث مقتل الصـياد ضـجة عظيمـة بـين الآهلـين وفي الدوائر؛ واتهم في ذلك ابن أخي المقتول لأنه كـان يصـطاد معه.

٢٦تشرين أول:

رأى قاضـي التحقيـق أن ابـن الأخ مجـرم وكـل مـن في البلدة يعتقد ذلك، مسكين ذلك الحمل!!؟

٢٧تشرين أول:

دافع الصبي عن نفسه دفاعا ضعيفا، لقـد حلـف أيمانـا مغلظة بان عمه قتل أثناء غيابه، وهو في البلد يشتري خبزا وجبنا.

ولكن من يصدقه؟

١٥تشرين الثاني:

بالموت! بالموت! بالموت!

حكمت على الطفل البريء! وقد احسن المدعي العام فكان ينطق كالملاك، وذكر الأسباب التي دعت إلى إدانة الطفل، وهو انه وريث عمه الوحيد.

لقد رأست جميع جلسات محاكمته وسأذهب لأرى مصرعه.

١٨ آذار سنة ١٨٥٢ :

انتهى كل شيء هذا الصباح. مات الطفل بسرور وبشجاعة مما زاد في ابتهاجي! ما أروع رأسه المتطاير، وما ألذ دمه المتدفق كالسيل! نعم كالسيل! آه لو مكنوني من الاستحمام فيه والاستلقاء عليه حيث اشعر بسريانه في شعري وعلى وجهي، وأقوم بعدها بالأحمر القاني.

ما أفضع الحقيقة لو عرفوها!

والآن أستطيع أن انتظر وان اسهر الليالي لا يثير دهشتي أحد، ولا يعكر صفوي معكر. . .

لم تنته المذكرات بعد. وهي تحوي عدة صفحات أخرى بدون جريمة جديدة. واقر الأطباء الذين كلفوا بدرس المذكرات بان هذا الضرب من المرض العقلي هو اقل أثرا لما نفكر في عصرنا المادي الذي زاد فيه السقوط الأخلاقي والجنون العصبي.

فينوس برانيزا

لم يكن أحد في (برانيزا) كلها يجهل ذلك التلمودي. ولم يكن مرد تلك الشهرة الواسعة إلى حكمته وخوفه الله فحسب. بل كان لجمال امرأته نصيب كبير في تلك الشهرة إذ كانوا يلقبونها (فينوس برانيزا) وقد نالت هذا اللقب عن جدارة واستحقاق، فهي فضلا عن جمالها الباهر زوجة بحاثة في التلمود.

وزوجات الفلاسفة اليهود غالبا ما يكن دميمات أو ذوات عاهات جسدية. وكتاب التلمود يشرح تلك الظاهرة ويفسرها بما يأتي: (إن عقود الزواج تعقد في السماء، وحين ولادة مولود جديد يعلن صوت سماوي أسم زوجة ذلك المولود ـ أي زوجة المستقبل؛ وكما أن الأب الطيب يدع أدوات منزله الثمينة ولا يستعمل إلا

الأدوات القديمة مع أولاده، فهكذا ينعم الله على الرجال التلمود بنساء لم يأبه لهن الرجال الآخرون!

ولعل الله أراد أن يبدل من هذه القاعدة ويخفف من وطأتها، ليثبتها، فاختار لصاحبنا التلمودي (فينوسا) فيها من الجمال ما يزيد في فخر العروس ويرفع من قيمة تمثال قائم على قاعدة في متحف. . . . كانت طويلة القامة، ممشوقة القد، جذابة الملامح، يقوم على كتفيها راس بديع رائع، وتتدلى على ظهرها ضفيرتان نجلاوان. . . ويداها. . كأنهما قطعتان من العاج!. .

وكأنما خلقت لتكون ذات سلطان لها رعاياها وعبيدها يسجدون عند قديمها، أو لتشغل ريشة فنان أو لتحرك قلم شاعر!.

لكنها عاشت عيشة زهرة جميلة نادرة في بيت خانق حار.

زد على ذلك أنها كانت تجلس معظم نهارها ملتحفة فروها الثمين تراقب الشارع من نافذتها.

لم يكن هنالك أبناء. . . . وكان زوجها الفيلسوف يجلس مصليا أو مطالعا من الصباح المبكر حتى منتصف الليل ولم تكن معبودته سوى (الجمال المقنع) كما يسميها كتاب التلمود.

ولم تكن تعبا بشؤون المنزل هي غنية، وكان النظام سائدا مستتبا كنظام الساعة التي تديرها مرة كل أسبوع. لم يزرها أحد ولم تخرج لزيارة أحد. . . وكانت تجلس تفكر وكأنها تحلم. وكثيرا ما كانت تتثاءب!.

وهبة على المدينة ذات يوم عاصفة هوجاء وقصف الرعد وكأنه يلهب المدينة بسياط. أوى اليهود إلى منازلهم وفتحوا النوافذ ليستقبلوا مسيحهم الموعود!

وكانت فينوس اليهودية جالسة على كرسيها المريح لابسة فروها ترتجف، وفجأة صوبت عينيها المتوهجتين نحو زوجها الجالس أمام كتابه وهو يتأرجح!

سألته قائلة: أخبرني متى يأتي المسيح أبن داود؟

فأجابها: سيأتي عندما يصبح اليهود كلهم صالحين أو طالحين، هذا ما يقوله التلمود.

ـ وهل تصدق أن اليهود يمكنهم أن يكونوا صالحين؟

ـ وكيف يمكنني أن أصدق هذا؟

ـ إذن سيأتي المسيح عندما يصبح اليهود كلهم طالحين.

وهز الفيلسوف كتفيه وتابع القراءة في كتاب التلمود، ذلك الكتاب الذي لم يخرج من قراءته رجل صحيح العقل خلا رجلا واحداً!

وظلت المرأة الجميلة تنظر إلى قطرات المطر المنهمر بعينين حالمتين وهي تعبث بثوبها الأسود بأسنانها البيضاء.

وفي أحد الأيام غادر الفيلسوف اليهودي بيته إلى مدينة مجاورة، إذ كان عليه أن يفصل في مسالة دينية. ونظرا لعلمه الواسع فقد حلت المشكلة بأسرع مما كان يتوقع. . وعاد مع صديق له أقل منه علما! عاد في نفس اليوم بدلا من أن يعود في اليوم التالي كما كان مقررا.

ترك العربة عند بيت صديقه وتوجه إلى بيته سيرا على الأقدام. لك يفاجأ حين شاهد نوافذ منزله مضاءة أو عندما رأى خادما لضابط يدخن غليونه ببساطة أمام منزله. تقدم إلى الخادم وسأله بأدب، وبشئ من الفضول: ماذا تصنع هنا؟ أقوم بالحراسة لئلا يأتي زوج اليهودية الحسناء على غير انتظار.

ـ حقا!. حسنا! أنتبه وراقب جيدا.

قال هذا وتظاهر بالذهاب، لكنه ولج البيت من مدخل خلفي. دخل الغرفة الأولى ورأى مائدة معدة لشخصين، ولاحظ أن صاحبيها تركاها قبل لحظات، وكانت زوجته

تجلس كعادتها متدثرة بفروها وكانت وجنتاها محمرتين مريبتين ولم تكن عيناها متعبتين ناعستين بل كانتا تحملقان بزوجها وفيهما ترتسم علائم السخرية والرضا وفجأة عثرت قدم الفيلسوف بشيء على الأرض أحدث صوتا غريبا فانتفض وكان الذي عثر به مهمازا.

ـ من كان معك؟

وهزت اليهودية كتفيها لم تجب

ـ أأخبرك؟ كان عندك قائد فرقة الخيالة

ـ لم لا يكون معي؟

ـ أخرجت يا امرأة عن صوابك؟

ـ ما زلت مالكة لكل صوابي، وارتسمت ابتسامة على شفتيها الساخرتين وقالت. ولكني أليس على أن أقوم بدوري كيما يأتي المسيح فيخلصنا نحن اليهود المساكين.

إنه ضوء القمر

كانت مدام جولي روبير تنتظر أختها مدام هنرييت ليتور التي عادت من سويسرا منذ خمسة أسابيع، بعد أن سمحت لزوجها بالبقاء وحده في كالفادوس لإنجاز بعض الأعمال التي تطلب وجوده، واتت لتقضي بعض أيام مع أختها في باريس للترويح عن نفسها، وفي الصالون الهادئ، جلست مدام روبير تقرأ وهي شارة الذهن، ترفع عينيها بين وقت وأخر كلما سمعت صوتا. وأخيراً سمعت دقا على الباب، فظهرت أختها حالا وكانت تلبس معطف السفر، وفجأة وقبل التحية تعانقتا بشدة ثم بدا الحديث عن الصحة والعائلة وأشياء أخرى تجيدها النساء. . .

كان الوقت مساء. فأضاءت مدام روبير المصباح، ولما رأت وجه أختها رغبت في عناقها مرة ثانية، فاقتربت

منها، ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت ضفيرتي أختها الطويلتين قد ابيضتا، بينما كان القسم الآخر من شعرها اسود لامعا وظهر شعرها الأبيض كالفضة تحوطه هالة من السواد.

كانت مدام هنرييت شابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها، فما هو السر في ابيضاض شعرها! إنها لم تره هكذا إلا بعد عودة أختها من سويسرا.

نظرت مدام روبير إلى أختها بدهشة والدمع يترقرق في ما فيها لأنها اعتقدت بان حادثا مخيفا ألم بأختها فسألتها بابتسامة حزينة:

ـ ماذا حصل لك يا هنرييت؟

ـ لا شئ يا شقيقتي. . . أكنت تنظرين إلى شعري الأبيض؟

ولكن مدام روبير قبضت على ذراعيها بشدة وكررت عليها السؤال:

أخبريني ماذا حصل لك . . . أخبريني بالحقيقة وإياك والكذب : ومكثتا برهة تنظر إحداهما إلى الأخرى وقد امتقع وجه هنرييت وكان دمعتان تبللان وجنتيها فسألتها أختها بلطف :

ألا تودين إخباري بما ألم بك؟

وفي صوت خافت قالت بعد أن أخفت جبهتها بين ذراعي شقيقتها :

لي . . . لي حبيب!

وهناك الكنبة جلست الأختان في أحد أركان الغرفة تتحادثان وقد وضعت الأخت الصغرى ذراعها على عنق أختها الكبرى بدلال وأخذت تنصت إلى حديثها :

إنك تعرفين زوجي وتعرفين كم احبه! فهو رقيق الشعور طيب، باسم الثغر، لطيف ومستقيم إلا أن به عيبا واحدا وهو انه لا يستطيع أن يطرى محاسن المرآة! ولست ادري لماذا؟ آه كم كنت أتمنى أن يضمني بين ذراعية بشدة،

ويقبلني قبلات حارة تمتزج بهـا أنفاسـنا! وكـم تمنيـت أن يكون ضعيفا بين يدي فيحتاج إلى رقتي وعطفي ودموعي! قد يظهر أن ما قلته لك تافه ولكننا نحن النساء جبلنـا علـى هذا فما العمل! ومع ذلك لم أفكر لحظـة في خيانتـه حتـى على شاطئ بحيرة لوكيرن!

هناك على شاطئ البحيرة، كـان القمـر يرسـل أشـعته الفضية على الكون فيملأ بهجة وحبورا، وشعرت حينئـذ بشيء لست اعرف كيف أفسره! ففي الشهر الذي قضـيناه نتنزه في سويسرا ونمتـع أنفسـنا بجمـال تلـك الـبلاد، أثـار زوجي احساساتي بهدوئه وصمته وتركني وحـدي سـابحة أهيم في الحسن والجمال! إلا يثير الجمال النفـوس ويبعـث فيها الحب إلا تثير ممرات الجبال الضيقة والأوديـة العميقـة والغابات الواسـعة والجـداول الرقراقـة والقـرى الصـغيرة الجميلة كل حب للجمال!

أجل لقد سحرتني هذه المناظر بجمالها فقلت لزوجي وقد ارتميت بين أحضانه ما اجمل هذه المناظر يا حبيبي . . انظر إلى القمر المنير والبحيرة الجميلة . . . . إلا تدعو هذه المناظر الساحرة المحبين للقبل ! ! قبلني الآن وفي هذا المكان قبلة حارة وامزج أنفاسك بقلبي المذاب ! ولكنه أجابني بابتسامة لطيفة باهته : (لا يوجد سبب يدعو إلى القبل) فتأثرت جدا من كلماته .

غاظني زوجي بمسلكه هذا ، فقد منع تلك الخيالات الشعرية والسبحات الفكرية من أن تخرج إلى دنيا الجمال وأبقاها مكنونة في نفسي عديمة الجدوى .

وفي إحدى الأمسيات ذهب روبير إلى فراشه بعد العشاء ، وكان قد أصابه صداع ، فذهبت في نزهة على البحيرة وهل لي غير البحيرة وشاطئها الجميل ؟

كانت الليلة مقمرة كتلك الليالي التي نقرأ عنها في أساطير الخيال ؛ وكان القمر يزهو باكتماله في كبد السماء

ويحي الأرض بأنواره الفضية، فيكسبها جمالا وبهاء. وظهرت الجبال العالية بثلوجها البيضاء كملوك تلبس تيجانا فضية، ولمعت مياه البحيرة لمعانا أخاذاً في ضوء القمر الجميل، وكان النسيم عليلا يهيج الذكريات ويبعث الشوق في القلوب.

جلست على العشب، ونظرت إلى البحيرة وقد استولى علي سحرها، فمر بي طيف عابر، وأحسست أن الحب قد تملكني وأصبحت في حاجة اليه، فتذكرت حياتي الأولى وما بها من سآمة ويأس فحزنت وتساءلت: ترى هل يبسم لي الزمان فأجد نفسي على شاطئ البحيرة ف ضوء القمر الساطع بين أحضان حبيب يلهبني بقبلاته فأنتعش بتلك القبلات الحارة التي ينعم بها العشاق!! وعندها شعرت بحبات لؤلؤية تتساقط على وجنتي لم ادر بسببها وسمعت من يقول: (لم هذا البكاء يا سيدتي؟ خففي عنك ما تجدين. . . فعلا الحزم وعلام البكاء)

وكنت مضطربة فقلت إني مريضة فسار إلى جانبي وكان طيب القلب وبدا يحدثني عما رأيناه في رحلتنا من المناظر الجميلة، وترجم كل ما أحسست به إلى كلمات جذابة وشعرت بأنه فهم احساساتي وشعوري كل الفهم، وفجأة اسمعني بعض الأبيات الشعرية لألفرد دي موسيه فشعرت كأنني في عالم غير عالمنا وخيل إلي إن الجبال والبحيرة وضوء القمر تغني وتسبح مبدع هذه المناظر الجميلة الساحرة.

وفي الصباح بينما أنا غارقة في هذه النشوة تركني هذا الحبيب واختفى بعد أن قدم إلي بطاقته! وهنا تأوهت مدام ليتور وكادت تصيح. . .

فقالت مدام روبير وقد سرها ما سمعت:

(لتعلمي يا شقيقتي العزيزة إننا لا نحب الرجل دائما ولا يستطيع أن يثير أشواقنا؛ فلا غرور أن حبيبك الحقيقي وأنيسك الذي سحرك بحلو ألفاظه ورقة شمائله وأثارك

وبعث فيك الحب والغرام في تلك الليلة وأنار لـك السـبيل هو ضوء القمر . . . أجل إنه ضوء القمر !) .

المنبوذة

عندما دخلت استراحة المسافرين بمحطة لوبان؛ صوبت أولى نظراتّي إلى الساعة، فوجدت أنه لا يزال أمامي متسع من الوقت حتى يصل قطار باريس السريع. وشعرت فجأة بالإجهاد كأني قطعت عشرة فراسخ سيراً على الأقدم. فنظرت حولي لعلي أرى على الجدران ما أقتل به الوقت فلم أجد شيئاً. فخرجت ووقفت أمام مدخل المحطة، وأنا أقلب الفكر فيما يرفه عن نفسي إلى أن يصل القطار.

كان الطريق أمامي قد نمت على جانبيه أشجار الفتنة بين صفين من مختلف المنازل الصغيرة، وقد ارتفع الطريق صعداً؛ فبدت نهايته كأنها حديقة بعيدة.

وكان مقفراً إلا من هرة تتسكع في الطريق في خفة، وكلب يسرع في مشيته يشتم قوائم الأشجار باحثاً عن فضلات الطعام. . .

واجتاحتني موجة حزينة من الشعور بالخيبة. ما العمل. . .؟ ما العمل؟ وجدت أنه لا مفر لي من الانتظار الممل بمقهى المحطة الصغير. وتصورت نفسي جالساً وأمامي قدح من الخمر لم تمسه شفتاي، وجريدة محلية عافت نفسي قراءتها، عند ما بدت أمامي جنازة قادمة من شارع جانبري لتخترق ذلك الطريق أمامي.

شعرت عندئذ أن منظر مركبة الموتى قد فرج عن نفسي.

لقد ربحت على الأقل عشر دقائق من فراغي الطويل. وتضاعفت فجأة انتباهي عند ما شاهدت الميت لا يشيعه سوى ثمانية رجال كان أحدهم يبكي في حرارة والآخرون يثرثرون ويتحدثون أثناء سيرهم. ولم يشترك في الجنازة

أي قس . ففكرت وأنا أخاطب نفسي (هاهوذا دفن مدني) ولكن سنح لي خاطر : ما بال المئات من ذوي الأفكار الحرة الذين يعيشون في البلدة لا يشتركون في إبداء شعورهم في مثل هذه المناسبة؟ إن سير هذه القافلة السريع قد دل على أنهم سيدفنون الفقيد دون احتفال ديني .

ودفع بي فضول إلى افتراض فرض معقد بعيد . ولكن ؛ بينما كانت المركبة تمر أمامي ، إذ بفكرة تنبعث في خاطري هي أن أشيع المركبة مع هؤلاء المشيعين وبذلك أشغل من وقتي الضائع ساعة على الأقل ؛ فسرت وأنا أتظاهر بالحزن خلف الآخرين .

والتفت آخر اثنين منهم إلي في دهشة ، ثم تحدثا في صوت خافت . فاعتقدت أنهما يتساءلان عن سبب وجودي وأنا الغريب عن هذه البلدة . ثم استتارا الاثنين اللذين أمامهما ؛ فالتفتا ناحيتي يتطلعان ألـيَّ في فضول . فضايقني ذلك الأمر ، وعزمت على أن أضع حداً له ؛

فاقتربت منهم، وقلت بعد أن بادلتهم التحية: (أرجو المعذرة أيها السادة إذا كنت قد قطعت عليكم حديثاً، ولكني عندما شاهدت الجنازة دفعت نفسي إلى اللحاق بها دون سابق معرفة بالفقيد الذي تشيعونه)

فرد أحدهم قائلا (أنها فقيدة).

فدهشت، وسألت: (إذن هي جنازة مدنية، أليس كذلك؟).

فأجاب آخر يشرح لي قليلا: (نعم، ولا. أن القس رفض أن ندخل بها الكنيسة).

فبدرت مني آهة من الدهشة لأني لم أفهم ما يعني.

فصرح قائلاً في صوت خافت: (إنها قصة محزنة. إن هذه الشابة قد انتحرت. وهذا هو السبب في عجزنا عن إجراء الطقوس الدينية قبل دفنها. إن من تراه يبكي هنا هو زوجها)

فقلت بعد تردد (إنك لتدهشني وتثير فضولي. هل أنتهك سرا إذا ما رجوت أن تقص على هذه القصة؟ إذا كنت تشعر بأن ذلك فضولا مني فاعتبر كلامي كأن لم يكن).

فأخذ الرجل بذراعي دون كلفة وقال: (كلا. . ليس ما يمنع أن أسرد عليك وقائعها. فلنبطيء في السير قليلا حتى نكون آخر المشيعين، ولدينا من الوقت ما يكفي للسرد قبل أن نصل إلى المقبرة عند الأشجار التي تشاهدها هناك).

ثم طفق يحدثني قائلا (تصور أن هذه المرأة الشابة السيدة بول هامون كانت ابنة أحد التجار الأثرياء السيد فونتانلي. وكان قد حدث لها حادث رهيب وهي في سن الحادية عشرة. لقد اعتدى عليها خادم، وكادت تموت خزيا وعارا من ذلك الحادث الأليم. وأظهرت المحاكمة

الرهيبة أن تلك المسكينة كانت ضحية ذلك الوحش مدة ثلاثة أشهر. فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ونمت الفتاة الصغيرة وقد تلطخت بالعار، منبوذة، وحيدة، بلا رفيقات ولا عطف وأصبحت أمام الأهلين كأنها مسخ أو أعجوبة من الأعاجيب. كانوا يتحدثون عنها في همس، ويتكلمون عن (الصغيرة فونتانل) في غمز، ويديرون ظهورهم عند رؤيتهم لها في الطريق. حتى المربيات، كان أكثرهن يأبين الالتحاق بخدمتها. وكانت العائلات تبتعد عنها كأنها وباء تخشى أن تنشره الفتاة فيسري إلى من بالقرب منها.

أي شفقة تعتريك لو كنت قد شاهدت هذ الطفلة المسكينة وهي تراقب الأولاد يمرحون ويلعبون في الساحة بعد ظهر كل يوم. كانت تجلس وحيدة أو تقف بجانب خادمتها تشاهد حزينة ما يحدث دون أن تشترك مع الأولاد في لهوهم. وعندما كانت تنتابها نزوة من الأغراء لا

تقاوم، كانت تتقدم في خجل وخوف وتدخل في زمرتهم في خطوات مترددة، وكأنها شاعرة بعارها. وسرعان ما ينهض الأمهات والعمات والمربيات من مقاعدهن ويأخذن بأيدي الأولاد ويجذبنهم بشدة بعيدا عنها، وتبقى الصغيرة فونتانل وحيدة، والهة القلب، مذهولة، ثم تنفجر باكية وقد امتلأ قلبها شجنا، وأخيراً تسرع إليها خادمتها تخفي وجهها المخضل بالدمع في مئزرها.

وكبرت الفتاة وازدادت حالتها سوءا. وكان الناس يحولون بينها وبين مثيلاتها من الفتيات كما لو كانت مصابة بالطاعون. ولم يكن لدى الفتاة شيء تتعلمه، لا شيء البتة. لقد قُطفت الثمرة المحرمة قبل أوانها وامتلأ جسمها بالأنوثة قبل أن يحين ذلك الوقت الذي تحاول فيه كل فتاة أن تقرأ المستقبل المجهول في وجه الرجل ليلة الزفاف.

كانت كلما عبرت الطريق بصحبة مربيتها، ينظر إليها الناس وهم في خشية منها، فتغض الطرف شاعرة بالعار الذي يثقل كاهلها. وكانت الفتيات الساذجات الغريرات يتغامزن عند رؤيتها في خفية، ويحولن أنظارهن عنها كلما التقت أعينهن بعينيها.

وكانوا قليلا ما يحيونها، ويتظاهرون بعدم رؤيتهم لها. حتى الصبية كانوا ينادونها (مدام باتست) اسم ذلك الخادم الذي اعتدى على عفافها.

كانوا لا يعرفون مقدار العذاب الذي تعانيه هذه الفتاة. فقد كانت قليلة الكلام لا تبتسم مطلقاً. حتى أهلها، كانوا يضيقون بها كأنهم يحقدون عليها من جراء تلك الهفوة الشنعاء. إن الرجل الفاضل لا يمد يده بمحض ارادته إلى المجرم الذي أُفرج عنه، ولن كان ابنه، أليس كذلك؟ وعامل السيد والسيدة فونتانل ابنتهما كأنها من طريدات السجون.

كانت جميلة، شاحبة اللون، ذات قامة هيفاء، وسمت وقور. ولو لم يكن ذلك الحادث لكنت من المعجبين بها.

ولما قدم الحاكم إلى البلدة بعد غياب ثمانية عشر شهراً استحضر معه سكرتيراً خاصاً، وهو شاب غريب الأطوار كان يعيش في الحي اللاتيني بباريس. فرأى الآنسة فونتانل وأحبها. وقصوا عليه قصتها فلم يأبه بها؛ بل قال إن ذلك يضمن مستقبلها.

وغازلها ثم طلب يدها وتزوجها. وكان لا يخجل من التزاور معها؛ فكان البعض يرد الزيارة، والبعض يحجم عنها.

وسار الحادث مع الزمن في طريق النسيان، وأخذت السيدة مقامها في المجتمع. وكانت تعبد زوجها كما لو كان إلهاً. أم يرد إليها شرفها؟ ألم يقاوم المجتمع ويكافح الناس من أجلها، ويواجه الإهانات بسببها؟ لقد كان يقوم بدوره في شجاعة قل أن تجدها في الرجال.

وحملت فتفتحت أمامها الأبـواب كأنمـا تطهـرت تمامـاً بالأمومة، إن ذلك لشيء مضحك. ولكنها الحياة!

وسار كل شيء في طريقه العادي، حتى حانـت حفلـة البلدة السنوية، وأقبل الحاكم يحيط به سكرتيره وحواشـيه وأصحاب الجاه لتوزيع الجـوائز علـى المتسـابقين، وأنـت تعرف بالطبع ما يحدث مـن خـلاف ومنافسـة وغـيرة بـين الناس في مثل هذه الحفلات، ومـا أكثـر أن يفقـد الـبعض رشدهم. كان كل سيدات البلدة قد حضرن لمشاهدة هـذه الحفلة. وتقدم رئيس فرقة الموسيقى لبلدة دي مورميـون؛ فقلده بول هامون وساماً من الدرجة الثانية. فقذف رئـيس الفرقـة بالوسـام في وجـه السـكرتير صـائحاً (احـتفظ بـه لباتسـت ـ فأنـت مـدين لـه ولـي بوسـامين مـن الدرجـة الأولى).

كان هناك حشد كبير مـن النـاس فسـرعان مـا ضـجوا بالضحك كان جمهوراً خشناً غـير مهـذب، واتجهـت كـل

الأنظار صوب السيدة المسكينة. أواه يا سيدي، ألم تشاهد قط امرأة جنت؟ لقد كنت بين الحاضرين في تلك الحفلة، وشاهدتها وهي تحاول النهوض فتسقط على مقعدها ثلاث مرات متتالية، كأنها تريد الهرب فيقيدها عجزها عن اختراق هذه الجموع المتكاثرة المحيطة بها. وسمعت صوتاً من جهة ما يصيح: (أهلا. . . أهلا. . . بمدام باتست) فضج بعض الناس بالضحك واشمأز البعض الآخر. وهبت عاصفة من الضوضاء والهرج، واهتزت الرؤوس وترددت الأصوات، وتطلعت الأنظار تشاهد وجه تلك التعسة، وحمل الرجال زوجاتهم على أذرعتهم ليشاهدنها، وتساءل الناس أيهن؟ أيه تلك التي ترتدي ثوباً أزرق اللون؟ وكان الأولاد يصيحون صياح الديكة، وانفجر القوم يضحكون ضحكات عالية، ولكنها لم تتحرك من مكانها، كانت جالسة في ذهول على المقعد الوثير كأنها ساعة خصصت لهذه الحفلة تتطلع إليها

الأنظـار، ولم تسـتطع حراكـا، ولم تـتمكن مـن إخفـاء وجهها. كانت جفونها تنطبق ثم تنفتح كأن هنـاك ضـوءا باهراً يحرق عينيها. ولهثت كأنها جواد يصعد مرتفعـا مـن الأرض. كان كل هذا يمزق قلبي تمزيقاً.

وأخذ السيد هامون برقبة رئيس فرقـة الموسـيقى ذلـك الشـخص الـوقح وألقـاه علـى الأرض وسـط الضوضـاء الهائلة. وتوقف الاحتفال، وبعد ساعة كان السيد هامون في طريقه إلى الـدار برفقـة زوجـه. كانـت مرتجفـة الجسـد صامتة لم تفه بكلمة واحدة. وفجأة تسلقت حاجز الجسـر دون أن يتمكن زوجها مـن منعهـا، ثـم ألقـت بنفسـها في النهر.

واستغرق إخراجها سـاعتين مـن ذلـك المـاء العميـق. كانت بالطبع قد فارقت الحياة).

صمت المتحدث لحظة ثم عاد بعدها يقول (ربما كان من الأفضل لها أن تصـل إلى هـذه النهايـة المؤلمـة. فـإن هنـاك

أشياء تحدث فلا يمكن محوها. وهأنذا عرفت الآن لماذا رفض القس أن يفتتح أبواب الكنيسة لها. فإنه لو كان الدفن دينياً لشيع الجنازة كل أهل المدينة. ولكن ذلك الانتحار وتلك القصة الأليمة حملت العائلات على الاحجام عن تشييع الجنازة. ولذلك كان من الصعب أن يشيعها القس.

وعبرنا باب المقبرة؛ وانتظرت في تأثر بالغ نزول الناووس في القبر لأقترب من ذلك الشاب المسكين الذي كان يبكي وينتحب. وشددت على يده معزيا، فنظر إليَّ في دهشة من خلال دموعه ثم تمتم قائلاً: (شكراً يا سيدي، شكراً).

ولم آسف أبداً على اشتراكي في تشييع هذه الجنازة.

أقام المركيز دي برتران حفلة شائقة على نخب صيد العام الجديد. فدعا أصحابه من أهل البلد. فالتف حول المائدة عشرة رجال تصحبهم ثماني نساء من ذوات الحسن والدلال؛ وكان الخوان موقراً بصنوف الزهر الزكي، وضروب الثمر الشهي؛ وقد ألقت مصابيح الكهرباء أنوارها المتلألئة على هذه الأنواع المختلفة من الزهر والثمر والطعام، فماجت تحتها موجاناً يستفز الشهية ويستقطر اللعاب.

جلس في صدر المائدة على مقربة من المركيزة طبيب البلدة، وهو رجل متقدم السن، وقور الهيئة، يبدو على وجهه طابع الفطنة والذكاء.

كانوا جميعاً يتجاذبون ألواناً ممتعة من الحديث اللذيذ والكلام الرقيق، فلما انتقلوا إلى حوار الحب، وماهية

الحب، انبعثت بينهم تلك المناقشة الخالدة التي يراد منها أن يفهم: هل الحب المحض يدرك القلب المرء مرة في حياته أو أكثر؟

فكانت تورد أمثلة لأناس تيم قلوبهم الحب الصحيح مرة فحسب، وكانت تورد أمثلة لأناس آخرين أحبوا بعنف وقوة وهيام أكثر من مرة.

كان الرجال بنوع عام يشبهون العشق بالأمراض، فكما أن هذه تعتور جسم الإنسان دوماً، فالعشق أيضاً يصيب فؤاده كثيرا ويكون في كل مرة من العنف والقوة والهياج بحيث يُؤثْر العاشق الموت إذا ما اعترضت سبيله علة من العلل.

أما النسوة فكان رأيهن يستند أكثر ما يستند على الخيال والشعر، وينأى عن النظر والفكر. فكن يثبتن في حماس واندفاع أن الحب المحض، الحب العظيم لا يمكن أن ينبعث في القلب إلا مرة فحسب، حتى إذا تمكن منه ألهاه

عن كل أمر، فأحرقه وألهبه، وكان فعله فيه فعل الصاعقة في الشجر والنبت، فكما أن هذه تحبس عنهما النمو والنشوء الجديدين، فهذا الحب أيضاً ـ يجعل القلب قفراً فارغاً لا يمكن أن تنشأ فيه أحلام تشبه أحلامه الأولى ولا أن تنبت فيه مشاعر تشبه مشاعر هيامه الماضي وعهده السالف

كان المركيز يدحض هذا الاعتقاد بكل ما أوتي من ذلاقة لسان، ومن حجة وبيان.

كان يقول:

ـ أؤكد لكم يا سادتي أن الإنسان في مقدوره أن يعشق أكثر من مرة بكل جوارحه وبكل قواه. إنكم تعددون لي أمثلة أناس انتحروا من أجل الحب كأنهم عاجزون عن أن يعيشوا ليعشقوا ثانية. غير أني أجيبكم: إن هؤلاء الناس لو أهملوا الانتحار وتحاشوا هذا الحمق المجنون، لألفوا في الحياة ما يثير الحب جديداً في قلوبهم الجريحة ويحي موات الأمل في نفوسهم اليائسة، لأن من هام عاد إلى الهيام،

ومن احتسى أولى الكؤوس عاد إلى سواها . تلك طبيعة المرء لا منصرف عنها ولا محيد .

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه ، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير . قال :

ـ أنا لا أخالف المركيز في رأيه ، فالهوى تتعدد فصوله وتتابع طوارئه على الفؤاد . غير أني عرفت فيما عرفت هوى دام خمساً وخمسين سنة ، وما خمدت ناره ولا انطفأ أواره إلا بالموت .

قال المركيز وهو يفرك يديه :

ـ ترى أهذا الحب محمود؟ وما وراءه من أمان وأحلام؟ وأي سعادة في أن يعيش المرء خمساً وخمسين سنة على غرام واحد؟

فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى المركيزة :

ـ إن الشخص الذي أتاح له القدر أن يكون معشوقاً طول هذه المدة كان رجلا وأنتم تعرفونه جميعاً ، هو السيد

شوكه صيدلي الناحية . أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضاً، هي صانعة الكراسي العجوز التي كانت تفد أحياناً إلى القصر هاهنا :

بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز، كأنما الحب لا ينبغي أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التي تستحق وحدها أن يبدي الناس لها عطفا واهتماماً .

قال الطبيب :

ـ منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهي على فراش الموت، وكانت قدمت في عربتها التي اتخذتها مسكناً لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها . يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لا شك أنكم رأيتموه .

ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها . كانت دعت القسيس أيضاً لتكشف لنا عن رغباتها الأخيرة فنكون منفذين لوصيتها . فقصت علينا

جميع أطوار حياتها . الحق إنني لم أسمع قصة أشد تأثيراً في النفس وأكثر غرابة في الأذن من قصتها . كانت حرفة والديها صنع الكراسي . ولم يكن لها سكن خاص في أرض معينة ، فإنها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب معتلة الجسم يثير منظرها نفوراً واشمئزازاً . وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشأ يصلحان الكراسي العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهي تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب المشرئبة . فإذا ابتعدت قليلا عنهما أو أخذت في الحوار مع الصبية ، فإنها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها المغضب يقول لها :
(ارجعي يا وقحة) . فكانت هذه الجملة ، الجملة الوحيدة التي تسمعها من أبيها .

ولما ترعرعت بعض الشيء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد . فكانت في تنقلها من مكان إلى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث إليهم . على أن

ذويهم كثيراً ما صدوهم عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار، ومنهم من كان يقول لولده: (ألا اقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام)

أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوهها بكلام! وكان بعض النسوة أعطينها قليلا من دراهم، فاحتفظت بها وحرصت عليها.

وبينما كانت تجوز هذا البلد في أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعاً من عمرها، إذ صادفت خلف المقبرة شوكه الصغير وهو يبكي أحر البكاء، لأن رفيقاً له سرقه درهمين. فآلمها وهي البنت المسكينة، أن ترى طفلاً حضرياً يذرف دموعاً سخينة من حيث لا مواسي له ولا صديق. فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت في يديه تلك الدراهم القليلة التي احتفظت بها. وكان طبيعياً أن يبتهج الطفل بالدراهم فأخذها ومسح دموعه. وكان منها أن جنَّت فرحاً بعمله، فأنشأت تعانقه

وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلاً حاراً دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهياً بفحص النقود ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل .

ولم يكن أحد يعلم ماذا جال في رأس هذه التاعسة من خواطر وأحلام، أتعلقت به لأنها ضحت في سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها؟

خفي ذلك على الصغار والكبار

وظلت أشهراً تتمثل في خاطرها زاوية المقبرة التي شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملاً في لقائه ومصادفته . وكان في يدها آخر الأمر فرنكان . على أنها هذه المرة بدلاً من أن تلمح فتاها في محل منعزل، رأته خلف قضبان حانوت أبيه : بهي الطلعة نظيف الثياب، والقناني الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب . فازدادت له حباً وبه

كلماً، وبهرها ما ألفت لديه من مجد بادٍ في هذه المياه المصبوغة، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة

فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع رفاقه، فهجمت عليه وقبلته تقبيلاً عنيفاً ريع له الولد وأخذ في الصراخ. لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة، تعانقه ما اشتهت من عناق.

وظلت أربع سنوات تقدم إليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدماً إليها القبلات عن رضى وسرور. أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات، وهي قطعة كبيرة جعلته يضحك لها ويرقص طربا.

لم تكن تفكر إلا فيه؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها إليه بصبر فارغ وشوق لجوج، حتى إذا

أبصرها، جرى إليها مسلماً خده لقبلاتها، ويده لدرهمها. وما أشد خفقان قلبها عند ذاك!

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل إلى مدرسة أخرى. وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق، فأبلت في السياسة بلاء حسناً حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف. وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه. فلما أبصرته كادت لا تعرفه. لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه، وابتسمت زهور اليفاعة في قده.

نظرت إليه نظرة شوق ولهف. وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار، ويعلو برأسه أنفة واستكبار.

وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها . وأصبحت بعد ذاك العهد أليفة أحزان، وصديقة آلام .

وانطوت الأعوام متوارية خلف حجاب الفناء، وفتاتنا لا تنقطع عن الشخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته، ودون أن يتنازل هو بإلقاء نظرة عليها

كانت تهواه بكل جوارحها، وهاكم ما أسرته لي (إن هذا الرجل يا سيدي الطبيب، الرجل الوحيد التي رأته عيناي، وما علمت بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه)

ومات أبواها واستمرت في حرفتهما، وقد صحبت من بعدهما بدلا من كلب واحد، كلبين هائلين يخشى الدنو منهما .

وكان يوم دخلت في هذا البلد، فرأت امرأة في نضارة الصبا وربيع الحياة تصحب شوكه حبيبها، وقد تأبطت ذراعه وهما يخرجان من الحانوت معا

لقد تزوج إذن شوكه!

وفي مساء اليوم ألقت نفسها في الغدير القائم خلف المحكمة. واتفق أن رجلا كان يمر هناك، فأنقذها وقادها إلى منزل شوكه، فنزل هذا لعلاجها، ودلك بيديه مكان الألم من جسمها دون أن يتظاهر بعرفانها. ثم ما لبث أن قال لها بصوت جاف: (أأنت مجنونة؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيواناً)

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء. ألم يتكلم إليها؟ حسبها ذلك! وظلت هائمة مغتبطة أمداً طويلا.

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره. وكانت تلمحه في سنيها خلف الزجاج، وما أكثر ما ابتاعت عقاقيره وأدويته لا تبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث إليه

وكما ذكرت لكم بديا، ماتت هذا الربيع وقد رجتني بعد أن قصت عليّ قصتها أن أحمل إلى هذا الذي أحبته حب العابد لمعبوده، جميع ما أدخرته من مال. لأنها كما اعترفت لم تشتغل إلا لأجله، تجوع أحياناً لتدخر له بعض المال. فإن ذكرها بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في قبرها بالسعادة والهناء.

أعطتني عشرين وثلثمائة وألفين من الفرنكات. فقدمت العشرين فرنكا إلى القسيس لأجل دفنها، وأخذت الباقي لما فاضت روحها، وقصدت منزل شوكه، فلما دخلت كان وزوجه يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه، والاحمرار يكسو وجهيهما، والسعادة تسبل عليهما ظلها الوارف وبشرها الطافح. طلبا إلي الجلوس فجلست، وقدما لي كوبا من مشروب (الكيرسك) فتناولته شاكراً وبدأت أنقل لهما القصة بصوت مضطرب حزين، لأني زعمت أنهما سيبكيان

ويحزنان على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الإفاقة الشريدة تضمر له حباً وولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط والغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة، ومن العزة والشرف شيئاً كثيرا. أما الزوجة فكانت تصيح والغيظ يملؤها (يالها من نذلة! يالها من نذلة!)

ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً كأنه أحد المجاذيب وكان يتمتم: (أو يمكن هذا يا دكتور؟ إن ذا لشيء فضيع! ما العمل؟ يا ليتني عرفت الأمر في حياتها! فلكنت أسوقها سوقاً إلى السجن بقوة الدرك)

فلبثت أنا كالمشدوه مما سمعته أذناي ورأته عيناي لا أدري ما ينبغي لي من قول ومن عمل. على أنني عقبت كلماتي: (سيدي إنها أوعزت إليّ أن أحمل إليك ما تركته من نقود، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات. ولما كان

ما نقلته لك من حديثها قد أثار فيك سخطاً وسوءاً، فلعل من الخير أن نهب النقود بعض الفقراء والمساكين)

نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة!

فأخرجت المال من محفظتي، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدَّخرً من جميع النقود من ذهب وفضة وغيرهما. وسألته قائلا: (ماذا عزمت؟)

قالت السيدة شوكه: (مادامت ربة المحتضرة الأخيرة تقضي بذلك. فأرى من الصعوبة رفض إرادتها)

وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه: (إن هذا المال ينفعنا في اقتناء بعض الحاجيات لأطفالنا)

قلت عند ذلك بصوت جاف: (كما تشاء)

قال: (هاته مادامت أوعزت إليك ذلك. فلن تعوزنا الوسيلة في إنفاقه إنفاقاً جميلا)

فقدمت إليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت

وجاءني شوكه في غد اليوم، وابتدرني قائلا: (هذه المرأة تركت عربتها، ماذا فعلت بها؟). قلت:

ـ لاشيء، خذها إذا أردت. قال:

ـ إنها تنفعني؛ سأجعل منها كوخاً لحديقتي

وهم بالانصراف فناديته قائلا: (إنها تركت أيضاً فرسها وكلبيها، ألا تريدها؟ فوقف مندهشاً وقال: (آه! كلا، لا حاجة بي إليها، ما أصنع بها؟ خذها أنت.) وأخذ يضحك ومد يده إليّ فصافحته بمودة، إذ لا ينبغي للطبيب والصيدلي أن يكونا عدوين

احتفظت بالكلبين، أما الفرس فقدمته إلى القسيس، وأفاد شوكه من العربة كوخاً لحديقته، وابتاع بالنقود خمسة أسهم في الخط الحديدي

هذا هو يا سادتي الحب العميق المحض الذي صادفته في حياتي

وصمت الطبيب

فأخرجت المركيزة من صدرها آهة حبيسة، وقالت والدموع تلألأ في عينيها:

(الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب!)